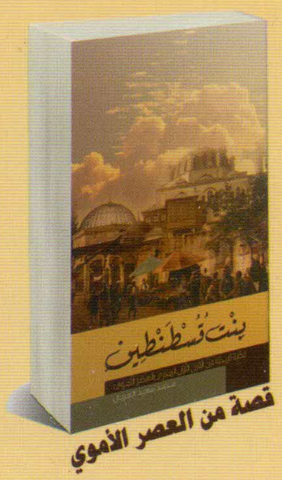


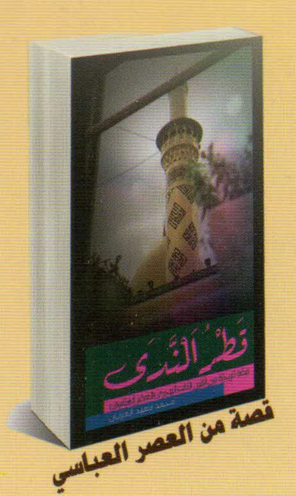
بنت قسطنطين

قصة تاريخية من القرن الأول الهجري (العصر الأموي)

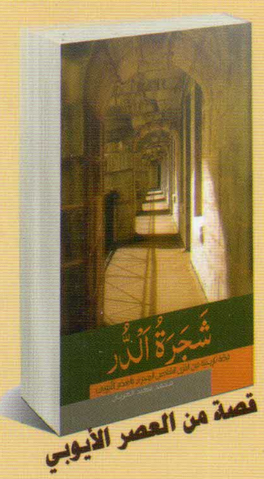
محمد سعيد العريان



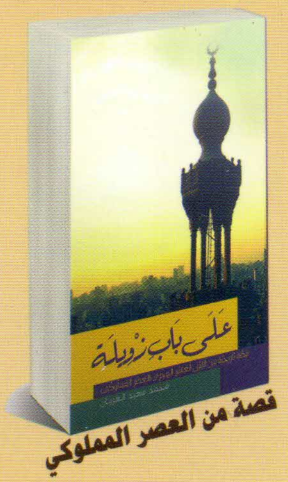
قصة من العصر الأموي



قصة من العصر العباسي



قصة من العصر الأيوبي



قصة من العصر المملوكي

الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
Telefax: +202 42 10 60 60
daralsahoh@gmail.com



قصة تاريخية من القرن الأول الهجرى

[العصر الأموى]

محمد سعيد العريان

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١١٢٧٨

الترقيم الدولي:

978-977-255-424-9



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

مجموعة من القصص التاريخية

١- بنت قسطنطين: قصة من القرن الأول الهجرى، العصر الأموى.

٢- قطر الندى: قصة من القرن الثالث الهجرى، العصر العباسى.

٣- شجرة الدر: قصة من القرن السادس الهجرى، العصر الأيوبى.

٤- باب زويلة: قصة من القرن العاشر الهجرى، العصر المملوكى.

محمد سعيد العريان

١٣٢٣-١٣٨٤هـ ،١٩٠٥ - ١٩٦٤م

ولد محمد سعيد بن أحمد العريان فى ٢/ ١٢/ ١٩٠٥ صباح أول يوم من عيد الفطر السعيد، وكان أبوه قد قارب المائة من عمره، ففرح به فرحًا شديداً.

ولد فى محلة حسن مركز المحلة الكبرى فى محافظة الغربية فى مصر.

كان والده مدرسًا بالأزهر، ولما نشبت الثورة العربية كان من خطبائها وشعرائها.

تلقى محمد سعيد دروسه الأولى على أبيه، ثم دخل الكتّاب، وحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، ثم التحق بالمعهد الأحمدى فى طنطا، وكان له نشاط وافر فى ثورة عام ١٩١٩م.

التحق بعد نيله الشهادة الثانوية بكلية دار العلوم، وكان عمره عشرين عامًا، فتزوّد من دار العلوم بكثير من علوم اللغة والأدب والدين، وتخرج فيها عام ١٩٣٠م بتفوّق. فرُشّح لبعثة علمية لدراسة الدكتوراه فى لندن، ولكنه لم يسافر.

من عام ١٩٣٠-١٩٣٤ اشتغل بالتعليم، فدرّس فى شربين، ثم انتقل إلى طنطا، وفيها التقى الأستاذين أمين دويدار ومحمود زهران، وألف معهما كتبًا للأطفال.

وفى طنطا أيضًا تعرف على الكاتب الكبير، فيلسوف القرآن وحجة البيان : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى، فكان ينسخ له ويصحح بعض مؤلفاته، وقد تأثر به أدبيًا ودينيًا، وأنشأ معه جمعية الثقافة الإسلامية، ونعم العريان بصحبة الرافعى ثلاث سنوات، فكان لا يهمُّ بكتابة مقالٍ إلا دعاه، وكان لهذا أثره فى أسلوب العريان.

خطب السيدة توحيدة ابنة التاجر الطنطاوى عبدالله الدمياطى، لكنّ أباها لم يأذن بزواجها إلا بعد بضع عشرة سنة من الخطوبة، كانت من أحلك أيام حياة العريان وأشدها قسوة على صحته وأعصابه، ولكنها كانت أغنى الفترات بإنتاجه الأدبى، وبعد سنة من زواجه رُزِقَ بطفلة، فاهتزت نفسه طربًا

لمقدمها، ونعم العريان بزواجه أربع سنوات ماتت بعدها زوجه بعد أن رُزِقَ منها بابنتين وولد.

لقد أصبح العريان بعد هذه الكارثة قليل التحمل لما يواجهه من مصاعب، وصار يبتعد عن الخصومات حذرًا من أن يحل به غضب، أو تصيبه عداوة.

وبعد مرور أربع سنوات على وفاة زوجته توحيدة تزوج من أختها المطلقة لترعى أولاده أولاد أختها، ولم يُرزق من الثانية أولادًا.

دخل العريان أوسع أبواب الشهرة تحت جناح الرافعى، فكانت مقالاته عن حياة الرافعي وتصديه لسيد قطب على صفحات «الرسالة» فى الدفاع عن الرافعي، حتى عُرف العريان بأنه مؤرخ الرافعى، وحلّ كتابه «حياة الرافعى» صدر مؤلفاته، بل أهم مصدر من مصادر حياة الرافعى حتى قيل: أصبح العريانُ رافعيًا.

استمر العريان مدرسًا حتى عام ١٩٤٢م ثم ترأس مكتبة الصحافة بوزارة المعارف، ثم اختلف بين وظائف عديدة بين عامى ١٩٤٤-١٩٤٥ م.

وفى عام ١٩٤٥-١٩٤٦م تعرّض لمحنة، حيث نُقل نقلاً تعسفيًا إلى صعيد مصر (جرجا) فامتنع عن التنفيذ، ففصل من

وظيفته، وقُدِّمَ إلى محكمة تأديبية، لكنّ المحكمة أنصفته، وأعادت إليه اعتباره، وردته إلى وظيفته.

وفى عام ١٩٤٦ أصبح مديرًا للمكتب الفنى لوزير المعارف ثم تنقل بين عدة وظائف تربوية إلى أن نُقِلَ مدرسًا بالمدارس الثانوية.

وفى عام ١٩٤٩ م عاد إلى المكتب الفنى لوزير المعارف.

وفى عام ١٩٥٠ م أقيم له حفل تكريم لتتوالى بعدها أيام عصيبة، فكان لا يستقر على عمل إلا ليُبعد عنه، كان أشهرها مدير إدارة العلاقات العامة بوزراة التربية والتعليم عام ١٩٥٦م.

وفى عام ١٩٦١ م انتدب ليكون وكيلاً لوزارة شئون الأزهر الشريف، فلاقى مصاعب جمة فى سبيل تطوير الأزهر الشريف.

نشاطاته الأدبية والاجتماعية:

١ - مشاركته فى إنشاء جماعة الثقافة الإسلامية بطنطا عام ١٩٣٣م.

٢- انتسب إلى مجمع البحوث الإسلامية.

٣- عضو مساعد للمؤتمر الإسلامى.

٤- مدير مكتب التوجيه القومى بالاتحاد القومى.

٥- عضو اتحاد الأدباء .

٦- عضو جمعية الأدباء .

٧- تأسيس نادى القصة .

٨- عضو فى لجنة التربية الدينية بوزارة التربية والتعليم .

٩- عضو بلجنة تيسير الكتابة العربية بمجمع اللغة العربية .

١٠- عضو بالمكتب الدائم لمؤتمر التعليم بالرباط .

١١-عضو لجنة النثر والقصة فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

١٢- عضو اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية .

١٣-عضو فى الاتحاد الاشتراكى .

١٤-كتب فى «الرسالة» منذ عام ١٩٣٣م، و«الثقافة» منذ عام ١٩٤٠ ، و«الكاتب المصرى» و «الكتاب» ومجلة «صحيفة دار العلوم» و «الرائد» صوت المعلمين و«سندباد» للأطفال و«الأخبار» و«الأهرام» و «النور» و«البلاغ» .

١٥-انتخب أمينًا عامًا لاتحاد المعلمين العرب عام ١٩٦١م .

١٦-حضر العديد من المؤتمرات ، منها مؤتمرات المعلمين فى سوريا والعراق ولبنان والأردن وليبيا والمغرب .

١٧-شارك فى مؤتمر الاتحاد العالمى للنقابات التعليمية فى أمريكا عام ١٩٦٤م.

رحلاته:

زار العريان عددًا من الدول مشاركًا فى النشاطات الأدبية والتربوية، منها: فلسطين، لبنان، والسودان، وسوريا، والعراق، والمغرب، وليبيا، كما زار روسية (الاتحاد السوفييتى) والنرويج، وألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، والدانمارك، ورومانية، ونيجيريا، وأمريكا.

وفى ليلة الأحد ١٤-٦-١٩٦٤ توفى الأستاذ العريان ودفن فى طنطا.

قال عنه الرافعى: «رجل كشيخ المسجد يخشى الله، ويتوقى على نفسه، ويستحيى من ضميره».

ورثاه الأستاذ محمد هارون الحلو فقال:

يا أيها الفارسُ السَّباقُ أينَ وهَلْ
بغير سعيك يُقضى للعُلى وَطرُ

اليومَ تلقِى علينا العبءَ مفتقدًا
وطالما قد زهاك السّعىُ والسّهرُ

علمٌ وفـــضلٌ وأخــــلاق مطهـــرةٌ
ومنطقٌ بالهُــدى والحق مـــزدهرُ
قـــضى وخلّف حُــزنًا فى جــوانحنا
حُزنًا كنار الغضا فى القلب تستَعِرُ

آثاره :

من أشهر آثاره:

١- حياة الرافعى .

٢- قطر الندى : ألفها عام ١٩٤٥ .

٣- على باب زويلة : ألفها عام ١٩٤٥ .

٤- شجرة الدر : ألفها عام ١٩٤٧ .

٥- بنت قسطنطين : ألفها عام ١٩٤٧ .

٦- من حولنا : ألفها عام ١٩٤٥ .

٧- تحقيق العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسى .

□□□

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وقعت حوادث هذه القصة خلال النصف الثانى من القرن الأول بعد الهجرة، والحكم يومئذ لبنى أمية، ودمشق عاصمة الدولة العربية العظمى، وجيوشُ الفتح تُوغل فى الشرق والغرب والشمال والجنوب، والرُّقعة العربية تنبسط كل يوم أميالاً وفراسخ، والإمبراطورياتُ العريقة تتهاوى إمبراطورية بعد إمبراطورية، والأباطرة المتألهون يخرُّون للأذقان سُجَّدًا إذْ لا يستطيعون عن أنفسهم ولا عمن حولهم دفاعًا ولا مقاومة. . . .

وكانت الخطة العربية يومئذ أن يصير هذا البحر المتوسط بيننا وبين أوربا - وكان اسمه يومذاك بحر الروم- أن يصير بحر العرب، ليس على شواطئه الفَوقانية ولا التحتانية إلا بلاد عربية يرتفع فيها الأذان وتُقام الصلوات.

وكان الجيش الزاحف فى شمال إفريقية قد فتح مصر وبرقة وما يليها من بلاد المغرب حتى بلغ شاطئ المحيط الأطلسى - وهو يومئذ آخر الدنيا من الغرب- فأخذ يتطلع إلى الشمال يريد أن يثبَ إلى أوربا من نحو المَضيق - مضيق جبل طارق - لينساب من شبه جزيرة أيبريا إلى أرض إفرنسة وروميّة.

وكانت جيوش عربية أخرى فى المشرق قد طهَّرت ثغور الشام من بقايا الروم وأبطلت مقاومتهم، ثم مضت زاحفة فاخترقت شبه جزيرة الأناضول وعسكرت تحت أسوار بيزنطة - القسطنطينية - عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، تريد أن تثب إليها فتملكها، فى الوقت الذى تثب فيه جيوش المغرب إلى شبه جزيرة أيبريا، ثم يمضى الجيشان، مشرِّقين ومغرِّبين، حتى يلتقيا فى الأرض الكبيرة، أرض رومية، عاصمة الدولة الرومانية الغربية؛ وبذلك تخلص أوربا للعرب، ويصير بحر الروم بحيرة عربية؛ فليس ثمة إِسبانيا، ولا إفرنسة، ولا الإمبراطورية الرومانية. . . . .

وكانت الخطة ماضية إلى غايتها بلا رَيْث، فما تزال الأنباء تتوالى على عاصمة العرب كل مَشرق صبح ومغرب شمس بما أفاء الله عليهم من الفتح والنصر فى كل جبهة من جبهات القتال؛ فملك العرب شبه جزيرة الأندلس وأزالوا عنها مُلك إسبانيا والبرتغال، ووثبوا إلى فرنسا فاحتلوا من

جنوبها بلادًا على الشاطئ وجهروا فيها بالأذان وأقاموا الصلوات . . .

وأحرزت جيوش المشرق على الروم نصرًا بعد نصر ، فاخترقت شبه جزيرة الأناضول ونفذت منها إلى البحر الأسود فعسكرت على شواطئه ، وصارت القسطنطينية على مرمى السهم . . .

وجاءت الأنباء من تركستان والعجم ، ومن الهند والصين ، ومن بلاد الحبش والزَّنج بما فتح الله على العرب من تلك الأصقاع البعيدة الشاسعة المترامية الأطراف .

كل ذلك ولم يمضِ على العرب منذ هاجروا بدينهم إلى الله غير بضع عشرات من السنين لا تبلغ تمام القَرن .

وكان لهذه الفتوح آثارها فى المجتمع العربى بدمشق وغير دمشق من العواصم العربية ؛ فتفتحت عيون العرب على ألوان من الترف وفنون من الحضارة لم يكن لهم بها عهد . . .

وكان من آثارها أنْ كثر الأسارى والسَّبايا فى أيدى المقاتلين العرب ، فانتقلوا بهم إلى الحواضر العربية ؛ فمنهم من والى العرب وآمن بدينهم واندمج فى المجتمع العربى وعاش بين العرب مولى من مواليهم ينتسب إليهم ولا يحسب منهم ؛ ومنهم من انتقل من أيدى المقاتلين إلى سوق الرقيق يشتريه من يشترى للعمل والمهنة أو للتكثُّر بالأتباع . . .

وكـان من أولئك الأسـارى بعضُ أبناء السـادة والقـادة والأمراء فى بلادهم، وكان لهم ثقافة ومهارات وفنون، فبرزوا فى المجتمع العربى بفنونهم ومهاراتهم وثقافتهم، وذاع لهم جاه وصيت، واكتسبوا مالاً وحظوة، ولكنهم لم يبلغوا فى المجتمع العربى لعهد الدولة الأموية منزلة العربى الأصيل؛ إذ كانت تلك الدولة تؤمن بالعِرْق والنسب.

وكان بين السَّبايا من بنات الأمم المغلوبة ذوات ثقافة وفنون ومهارات كذلك، أو ذوات ملاحة ودلال وفتنة، أو ذوات حسب ونسب ومجد؛ فأغرى كل أولئك-أو بعضه-رجالاً من العرب باتخاذ زوجات منهن أو وصائف وحظايا . . .

وكثرت الزوجات والحظايا من بنات الفرس والروم والتُّرك والإسبان والصقالبة وغيرهم من بيوت أمراء العرب وفى بيوت السوقة كذلك، وولدن لهم بنين وبنات من ذوى النجابة والفطنة والعزم، أو من ذوات الحُسن المُطَعَّم. وكان أولادهن هؤلاء هُجَنَاء قد اختلط في أعراقهم دمٌ عربيٌّ بدم غير عربىّ.

***

كذلك كان المجتمع العربى فى السنين التى وقعت فيها حوادث هذه القصة، وتلك كانت سماته وملامحه العامة . . .

وتبدأ القصة فى مسجد «الرِّقَّة» -وهى بلد من بلاد الجزيرة

على شاطئ الفرات- حيث جلس قاصٌّ من قصاص الدولة إلى سارية من سوارى المسجد يتحدث إلى أهل حلقته حديثًا يشوِّقهم به إلى الجهاد ويُرغِّبهم فيه ويُحبِّب إليهم أن ينتظموا فى صفوف الجيوش الغازية فى الشرق أو الغرب . . .

وكان لمثل هذا القاصّ فى عهد الدولة الأموية شأن أو أثر ، فهى قد ابتدعت هذه الوظيفة واختارت لها طائفة من العارفين بالسِّيَر وأخبار المغازى والفتوح ، تؤجرهم على ما يقصُّون من قصص فى مساجد الأمصار بقدر ما يتركون من أثر فى سامعيهم ، ليسارعوا إلى التطوع فى الجيوش الغازية أو يكونوا حزبًا للخليفة ؛ فكان أولئك القُصَّاص يقومون فى وقتهم ذاك بمثل مهمة صحف الدعاية ومكاتب الاستعلامات فى مثل هذه الأيام . . .

ولعل الدولة الأموية بابتداعها لهذه الوظيفة كانت أسبق الدول إلى الأخذ بهذا المذهب الذى يهدف إلى توثيق صلة الحكومة بالجماهير وكسب تأييدهم فيما تحاول من تدبير سياسى فى الداخل أو فى الخارج ؛ وهو مذهب له اليوم فى السياسات العامة شأن كبير . ولعلها- إلى ذلك-كانت أول دولة عرفت أثر القصص فى النفوذ إلى نفوس الجماهير ، فاستخدمت هؤلاء القصاص لتنفذ بهم إليها ؛ إذ كانت تشعر أنها بإزاء منافسة قوية على العرش يحمل رايتها بنو هاشم ، من

آل أبى طالب وآل العباس، الأحبَّاءُ إلى قلوب الجماهير لقرابتهم القريبة من النبى ﷺ.

على أن أحاديث هؤلاء القُصاص فى حلقاتهم تلك لم تكن قصصًا بالمعنى الفنى الذى نفهمه فى هذه الأيام من كلمة «قَصص»، وإنما هى أخبار وروايات تتداعى لمناسبتها وتتساوق لإحداث الانفعال والتحميس والسموِّ بالروح المعنوية للشعب؛ ولكنها برغم ذلك نوع من القَصص على غير قاعدة من قواعد ذلك الفن....

***

وتمضى القصة من حيث بدأت فى حلقة ذلك القاص بمسجد الرَّقة، حتى تنتهى إلى غاية من غايات كل قصة تتفاعل فيها نفوس البشر بالعواطف المتناقضة التى تنشئها فى نفوس أبطالها ظروف المجتمع الذى يعيشون فيه....

وقد عرفنا فى بعض ما مضى من هذا التمهيد بعض ملامح هذا المجتمع الذى وقعت فيه حوادث هذه القصة...

المجتمع الذى ينتظم عربًا خالصى النسب قد جعلهم دستور الحكم طبقة فوق الناس، وموالى ليس لهم فى العرب نسب ولكن لهم على كل عربى حق الولاء، ولهم فى نفوسهم ذكريات عميقة لماضٍ بعيد، وهجناءَ يمتُّون

إلى العرب بنسب وإلى عدوٍّ العرب بنسب، فلهم أسرة هنا وأسرة هنالك والحرب لم تزل ناشبة بين الأسرتين . . . وفى كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث التى ينتظمها المجتمع، رجال ونساء . . . رجال من طبقات ثلاث، ونساء من طبقات ثلاث كذلك، وللمجتمع الذى يعيشون فيه دستور وللعواطف الإنسانية دستور آخر فوق دساتير الناس . . .

بهذه العواطف المتناقضة تفاعلت حوادث هذه القصة، ورجُلها الأول هو مَسلمة بن عبد الملك، أبوه الخليفة عبد الملك ابن مروان، ولدته له سبيَّة من سبايا الروم، فلما كبر حمل راية العرب فى وجه الروم، وتحت رايته هذه رجال من الطبقات الثلاث، ووراء كل رجل منهم امرأة، زوجة أو أم، من إحدى طبقات ثلاث كذلك، وفى قلب كل أمٍّ أو زوجة منهن ذكريات قديمة وعواطف جديدة وآمال مرتقبة . . .

ذلك هو الجو الإنسانى لهذه القصة، ولست أريد أن أصفه أكثر مما وصفت، لتبقى للقصة قوة وتشويق؛ أما جوُّها التاريخى فيصف خُطا العرب فى زحفهم إلى القسطنطينية- عاصمةالروم-فى القرن الأول؛ وهم قد بلغوا فى زحفهم ذاك مبلغًا كان خليقًا بأن ينتهى بنصر عظيم، ولكنهم تراجعوا

والثمرة دانية؛ فلماذا ؟ . . . ولكنى لا أريد كذلك أن أجيب الآن، لتبقى للقصة كذلك قوة التشويق. . . .

أما بعد فإن هذه القصة صورة من كفاح العرب فى تاريخ مضى، لتبليغ رسالة، وتحقيق سيادة؛ وإنهم ليكافحون اليوم كفاحًا من نوع آخر لتبليغ رسالة، وتحقيق سيادة، وردِّ عُدوان؛ فما أحراهم فى مرحلة كفاحهم الحاضر أن يتدبروا بعض ما مضى من فصول ذلك التاريخ. . . .

***

بنتُ قسطنطينَ

قصة تاريخية

معركة . . . . بدأت منذ ألف وثلاثمائة سنة ، وما تزال حتى اليوم ناشبة . . . .

الذَّرَّاتُ التى نفضتْها رمال الجزيرة العربية على أرض البشر منذ ارتجّت بتلك الزلزلة العظمى ، لم يزل فيها من قوة الاشتعال بروق وصواعق . . . . لهداية البشرية الضالة ، زحفت هذه الجحافل من المشرق-منذ التاريخ البعيد-ولم تزل حتى اليوم تناضل . . .

الحرب سجال . . . ولكن العاقبة لنا !

❑❑❑

[١]

حديث القاص [١]

فرغ الناس فى مسجد الرَّقة[٢] من صلاة العشاء الآخرة، فتنفَّلوا[٣] ما طاب لهم التنفُّل، ثم دلَفوا[٤] إلى حيث كان أبو داود الحِمْصىُّ مستندًا إلى سارية من سوارى المسجد يقصُّ القَصصَ ويرغِّب فى الجهاد، ويروى من أنباء المغازى والفتوح ما يُحَمِّس الجبان ويشدُّ العزم ويستلب ألباب الشيوخ وقلوب الشباب . . .

وكان أبو داود هذا قاصّاً واسع الرواية، عَذب الحديث، لطيفَ الإشارة؛ قد تتبَّع أنباء المغازى والفتوح منذ أول عهد العرب بالفتح، فأتقنها حفظًا ورواية وتمثيلاً بالقول والإشارة

(١) انظر التمهيد.

(٢) الرقة: بلد من بلاد الجزيرة على شاطئ الفرات.

(٣) تنفلوا: صلوا النوافل، وهى ما بعد الفريضة من ركعات السنة.

(٤) دلفوا: مشوا بخشوع.

ونَبْرِ الصوت، حتى ليحسبُ كلٌّ من سمعه يقصٌّ أنه شهد بعينيه وشارك بسيفه فى كل معركة من معارك الفتح فلم يتخلّف عن واحدة !

وكان رجلاً فى الأربعين لم يطعن فى السن ولم تُثقل كاهلَه السنون، قصيراً بطيناً معتجر العمامة، قد أرسل لحية تضرب أطرافها على بطنه؛ فما يراه أحد فى منظره ذاك ويستمع إلى حديثه مُسنداً إلى الرواة من أبطال الفتح، إلا ظنَّه شيخاً عميق الجذر بعيدَ المولد والدار، إلا تكن له صحبةٌ أو هجرة فإنه -لابُد- قد عاصَرَ وغزَا واستظل فى معارك الفتح بلواء الفوج الأول !

وكان عظيمَ القدر عند أمراء بنى أميّة فى الشام، فهو جليسُهم وجارهم ما أقام بدمشق، فإذا بدت الرِّحلة إلى أىٍّ بلد من بلاد الإسلام لم تزل صلاتُهم وعطاياهم تَرِدُ عليه حيث كان؛ على أن أمير المؤمنين عبدَالملك (١) كان أكثرهم عطفًا عليه وصلات إليه، وكان يقول له: لسنا نحاول اصطناعَك بهذا يا أبا داودَ، بل أنت اصطنعتَنا بخالص ولائك وكريم بلائك لنُصرة بنى مروان . . .

(١) عبد الملك بن مروان، من خلفاء الدولة الأموية؛ وأبوه مروان بن الحكم؛ رأس الدولة المروانية: فرع من بنى أمية.

وتكاملت الحلقة، وأخذ أبو داودَ ينتقل بالناس فى قَصصه من فنّ إلى فنّ ومن واد إلى واد، فهو حينًا فى البر، وحينًا فى البحر، وطَوراً على ظَهر البّادية، وتارة فى ظل حصن من حصون الروم فى المغرب أو فى المشرق، وآونة فى سهول الجزيرة و فيافى العراق يصف كيد الخوارجَ[1] وتطاحن الفرِق. . . .، ثم قال[2]:

«ضَلَّ مَنْ فتنتْه دنياه عن دينه، وشغلتْه أولاه عن آخرته، وأزلَّه الشيطان فأذلَّه، وأطعمه السلطان فأضرعه[3]! . . .».

«ألا إن قومًا فى بعض الأمصار-غفر الله لهم-قد زُيِّنَ لهم الباطل، فشرعوا سيوفهم لحرب أمير المؤمنين، يأبَوْن-بزعمهم-أن تكون هرَقْليَّةً[4] يتوارثها خلفٌ عن سلف، فهلاَّ شرعوا سيوفَهم هَذه لَحرب هرقل، ودكٌّ معاقل الكفر فى بلاده، ونشر دين الله فى الأرض ! . . .».

وصمت أبو داود برهة، ثم رفع عينيه يجول بهما فيمن حوله وهو يخلل لحيته بأصابعه، ثم استأنف حديثه :

(١) الخوارج: فرقة من المسلمين، خرجوا على طاعة على بن أبى طالب، وحاربوا بنى أمية وكان لهم شأن فى تاريخ الإسلام.

(٢) نموذج من أحاديث القصاص.

(٣) أضرعه: أذله وأخضعه.

(٤) هرقلية: نسبة إلى «هرقل»، من ملوك الروم: أى ملوكية وراثية.

حدثنا نصر بن عوانة-وكان في جيش عقبة بن نافع[1] بالمغرب-قال: لقد رأيت عقبة وقد بلغ بجيشه شاطئ الأقيانوس الأخضر[2]، فيدفع حصانه إلى البحر ويقول بحماسة: اللهم ربّ محمد، لولا أني لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمتُ هذا الهول المائج لأنشر اسمك المجيد في أقصى حدود الدنيا!

«رحم الله عقبة! وأين مثلُ عقبة؟ فإن قسطنطين بن هرقل ما يزال وراء هذه الحدود المتاخمة، يتهدّد أصحابنا بالغارة بعد الغارة برًا وبحرًا، فهلا خرجنا إليه لينتشر اسم الله المجيد في أقصى بلاد الروم! ضلَّ من جعل إلهه هواه! ألا إنه لولا ابنُ هرقلَ على هذه التخوم لما صارت-بزعمهم-هِرَقْليَّة!».

وتلبَّث القاص برهة أخرى، ثم استأنف:

«لقد كان معاوية[3]، وكان ابنه يزيد[4]، وكان مروان[5]؛

(١) عقبة بن نافع: قائد جيش الفتح في شمال إفريقية، وإليه فضل الفتح في تلك الأصقاع.

(٢) الأقيانوس الأخضر: المحيط الأطلسي، وكان يسمى أيضًا: بحر الظلمات، وكانوا يعتقدون أن لا أرض وراءه؛ لأن أمريكا لم تستكشف إلا بعد ذلك بقرون.

(٣) معاوية بن أبي سفيان: رأس الدولة الأموية.

(٤) يزيد بن معاوية: كان خليفة بعد أبيه.

(٥) ومروان بن الحكم: رأس الدولة المروانية، من فروع بني أمية، وعبد الملك ولده.

ثم كان أمير المؤمنين عبد الملك . . . كأنما لم تمضِ تلك السنون، وكأني أرى الساعةَ وأسمع تكبير جند الشام يقَودهم ابن أمير المؤمنين[1]، وفيهم ابن عباس[2]، وابن عمر[3]، وابن الزبير[4]، وأبو أيوب الأنصاري[5] جار رسول الله ﷺ ومُضيفه في دار هجرته؛ قد ركبوا في عشرات الآلاف من الجند، تُقلُّهم سبعمائة وألف سفينة قد صنعها معاوية بعينيه من أرز هذه الغابات الكثيفة في جبال لبنان[6]، ثم أرسلها في البحر لحرب الروم، تغزو بلادهم، وتدكُّ حصونهم، وتملك جزائرهم في البحر، وتأخذ عليهم طريقهم في البر، وتطوّق مدينتهم هذه التي بناها قسطنطين الأول[7] واتخذها قاعدة

(١) كان يزيد بن معاوية على رأس غزوة بحرية في عهد أبيه، تعرف باسم غزوة «ذات الصواري» لكثرة ما كان فيها من السفن التي ازدحمت صواريها على الماء.

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: ابن عم النبي ﷺ.

(٣) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٤) هو عبد الله بن الزبير، وأمه أسماء بنت أبي بكر.

(٥) كان أبو أيوب أنصاريًا من أهل المدينة، وحين هاجر النبي إلى المدينة نزل بداره؛ فكان يسمى «جار رسول الله» وسيتكرر ذكره كثيرًا في بعض ما يلي من فصول هذه القصة.

(٦) لم تزل جبال لبنان مشهورة بشجر الأرز، ولخشبه خصائص ليست في خشب غيره.

(٧) القسطنطينية: مدينة أوربية عند مضيق غليبولي، كانت عاصمة للدولة الرومانية الشرقية، وهي اليوم مدينة تركية بناها الإمبراطور قسطنطين الأول، وإليه تنسب، وتسمى كذلك «بيزنطة»، وهي نفسها «الآستانة» و«إستانبول»، أو «إسلامبول» كما كانت تسمى بعد الفتح العثماني.

لملكه؛ فما يزالون على حصارها سنين ذات عدد، لا يصدر منها ولا يرد إليها، حتى يبلغ الجهد بقسطنطين وأهل ملَّته ما يبلغ، فيعطى الجزية صاغراً. . . ويعود المسلمون ظافرين لم يتخلف من رؤسائهم غير أبى أيوب، قد دُفن عند سور القسطنطينية كما وعده رسول الله ﷺ[1]!

« رد الله غربتك يا أبا أيوب!

مُضيف رسول الله (ﷺ) أول هجرته إلى المدينة قد ثوى[2] تحت أسوار القسطنطينية ضيفًا على أهل الكفر!».

« يا أبناء المهاجرين من ضيوف أبى أيوب، يا أبناء الأنصار من صحابته، إن أبا أيوب لم يزل كريمًا كعهدكم به؛ فهاجروا إليه يُضيِّفكم فى داره الجديدة كما ضيَّف نبيكم محمداً (ﷺ) منذ سنين سلفت[3]!».

هتف عتبة بن عبيد الله وقد مسَّ حديثُ الشيخ شَغَاف قلبه:

(١) جاء فى بعض الخبر أن النبى ﷺ وعد أبا أيوب أن يموت محاربًا فى ثغر من ثغور الكفار، وبه يدفن؛ وكان أبو أيوب سعيداً بهذه الموعدة، حريصًا على أن تتحقق؛ وبسبيل حرصه على تحقيقها كان تطوعه -وهو شيخ كبير- للمشاركة فى كل غزوة بحرية؛ حتى أدركته الشهادة فى تلك الغزوة، فدفن تحت أسوار القسطنطينية؛ ولم يزل قبره معروفًا هنالك، حتى اليوم، ومنذ كان، باسم مسجد الشيخ الصالح!

(٢) ثوى: رقد.

(٣) إشارة إلى ضيافته للنبى ﷺ أول قدومه إلى المدينة.

-لبيك أبا أيوب !

فضج المجلس وراءه بالتلبية . . .

***

ذلك شأن القاص أبى داود وذلك شأن الناس معه ، ما يزال ينتقل بين الأمصار ، يدعو إلى الجماعة[1] أو يدعو إلى جهاد أهل الشرك ؛ فيستجيب له من يستجيب ويُلبِّى مَنْ يلبِّى . . .

ولكن الفتنة التى نشبت بين أهل القرآن منذ سنين لم تطفأ بعد ؛ فما يزال فى كل بلد داعٍ يدعو لنفسه ويؤازره من المسلمين طائفة ؛ فأمير المؤمنين فى الحجاز وما والاها عبد الله ابن الزبير ، وأمير المؤمنين فى الشام عبدالملك بن مروان ، وما يزال فى الجزيرة والكوفة وما وراءها من أرض المشرق داعٍ أو دعاة يهتفون باسم أمير من بنى على بن أبى طالب[2] ؛ فَما ينفك متنقلاً على جيشه من مصر إلى مصر وَفى دمشق نفسها لم يزل واحد أو أكثر من السفيانية[3] أو غيرهم من فروع بنى أمية ينفس[4] على بنى مروان أن تكون الخلافة

(١) وحدة الرأى وتأييد الخليفة القائم ؛ انظر التمهيد .

(٢) كان فريق المسلمين -ولعله الكثرة- يرى عليًا وبنيه أحق بالخلافة من معاوية وبنى أمية .

(٣) السفيانية : أولاد أبى سفيان ؛ وكانت الخلافة فيهم منذ معاوية ، حتى وليها مروان بن الحكم فتسلسلت فى بيته إلى آخر الدولة .

(٤) يرى أن ينافس بنى مروان فى الخلافة .

فـيـهم... . وعـبـدالملك يحـاول أن يوطِّئ نفـسـه بين هذه الزعازع[١]، فما ينفك متنقلاً على رأس جيشه من مصرٍ إلى مصر[٢] مكافحًا صابرًا قد استحلَّ سفك الدم فى سبيل توطيد العرش وتوطئة الأكناف لبنى مروان، وكان قبل أن يليها شيخ من الرأى[٣] لا يكاد يفارق مسجد رسول الله ﷺ فى المدينة أو يدعُ المصحف!

وحلّت سنة ٧٠ من الهجرة وما تزال الفتنة ناشبة، وكان الروم قد انحسروا عن أرض المشرق فليس لهم فى الشام باع ولا ذراع، ولكنهم منذ جَلَوْا عن أرضِ المشرق لم تزل أنفسهم تُنازعهم إلى استرداد ما فَقدوا منَ تلك الأرض الواسعة الخصبة، فكأنما انتهزوا هذه الفتنة الناشبة فسيروا جيوشهم إلى أنطاكية[٤] فحاصروها، ثم وضعوا أقدامهم وأوغلوا فى البلاد.

□□□

(١) الزعازع: الأعاصير.

(٢) من بلد إلى بلد، والمصر هو بلد المتحضر.

(٣) أهل الرأى: هم الفقهاء وأصحاب الفتوى؛ وكان عبد الملك منهم قبل أن يرث أباه.

(٤) أنطاكية: ثغر من ثغور الشام: ويسمى الإسكندرية -كان إلى قريب جزءاً من سورية، ثم اغتصبته تركيا، ففعلت بأهله ما فعل الصهيونيون بأهل فلسطين.

[٢]

عهد ونذر

كان النعمان بن عبيد الله يدندن بيتًا من الشعر :

أرُوح إلى القُصَّاص كلَّ عشيَّة
أرَجِّى ثوابَ الله فى عدد الخُطَا !

حين ابتدره أخوه عتبة :

قد مسَّ والله حديث أبى داود القاص شغافَ نفسى ؛ وما أرى هذه الفتنة الناشبة فى الأمصار إلا كيدًا من الشيطان لتفريق الجماعة وصدْع الجبهة والتمكين للمشركين كى ينالوا منَّا مَنَالَهم ، وإن هؤلاء الخوارج ليزعمون أنهم يَدْعون إلى الله ، ويَغْفُلون عما وراء ذلك العصيان من تفريق الكلمة ووَهَن المسلمين ؛ ولو أن هذه الجموع المسلمة التى تُساق كل يوم إلى المذابح بالأيدى المسلمة ، قد سِيقت صوائف وشواتى[1] إلى

(١) الصوائف : غزوات الصيف. والشواتى : غزوات الشتاء، وكان للعرب =

بلاد الروم، لرجـوت أن تكون القـسطنطينيـة بأيدينا وينزل المسلمون ضيوفًا على أبى أيوب ! . . . .

ثم استطرد قائلاً فى عزم :

-وإنى قد رأيت-يا نعمان-رأيًا أرجو أن تمضى فيه معى . . .

قال النعمان مستدركًا :

- دَعْ عنك ما رأيت يا أخى وأعد علىّ ما قلت : أزعمت-وَيْحَكَ-أن ابن مروان أحقُّ بها من عِتْرَة مُحمد ﷺ[1] ومن ابن ذات النطاقين[2]؟ لقد مات أَبوك إذن على ضلال يا عتبة[3] ؛ فقد علمت ما أبلى أبوك يوم الجمل[4] وفى حرب

= صوائف وشوات متتابعة على الروم، فى البر والبحر، منذ فتحوا الشام إلى أن تقلص ظل الروم عن ذلك الأصقاع .

(١) عترة محمد: آله من بنى على بن أبى طالب، لأن أمهم فاطمة بنت محمد .

(٢) ذات النطاقين: أسماء بنت أبى بكر، وولدها عبد الله بن الزبير، وكان يطلب الخلافة لنفسه فانهزم وقتل . وسميت أسماء ذات النطاقين لأن لها قصة يوم هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ومعه أبو بكر أبوها؛ إذ كانت تغدو عليهما فى الغار بالطعام، تجعله فى نطاقها بعد أن شقته شقتين؛ فسماها النبى ﷺ ذات النطاقين .

(٣) يشير إلى أن أباهما مات وهو يحارب فى صف الهاشميين .

(٤) يوم الجمل: وقعة كانت بين على بن أبى طالب وبعض المخالفين له، وكان بينهم «عائشة» زوج النبى ﷺ، وكانت تركب جملاً فى هذه الموقعة، فسميت موقعة الجمل، أو يوم الجمل .

صفِّين[1] ومعركة الطَّف[2] فلم يقعد عن الحرب حتى استَشهد مع المختار بن أبي عبيد طلبًا لثأر الحسين[3]؛ أفهذا تعني حين تذكرُ صَدْع الجبهة وَهَنَ المسلمين؟ . . . .

صمت عتبة برهة مفكرًا، ثم رفع رأسه يقول :

ما هذا عَنَيْت يا أخي، ولقد اجتهد أبي ما اجتهد لصلاح هذه الأمة، حتى ذهب إلى ربه راضيًا مَرْضيًا، وإن لأرجو أن يقبل الله شهادتَه[4]؛ ولكن نفسي لا تطيب بأن أحارب إخواني في الدين وأدعَ هؤلاء الرومَ حتى يطئوا من بلادنا كلَّ موطئ، ويسترقُّوا[5] الحرائر والولدان من نسائنا وبنينا؛ فسأطلب منذ الغد إلى مسلمة بن عبد الملك[6] أن يُغزيني في صائفته؛ لعلي أن أدرك نصرًا أو أجاور أبا أيوب !

***

(١) صفين : مكان قريب من الرقة، على شاطئ الفرات، كانت فيه موقعة أخرى بين علي ومعاوية.

(٢) والطف : موقع قرب الكوفة، كانت فيه موقعة ثالثة.

(٣) المختار بن أبي عبيد : محارب من أهل الفتنة، ثأر في وجه الدولة الأموية باسم الثأر للحسين بن علي -وكان أتباع يزيد بن معاوية قد قتلوه في مجزرة وحشية لم يسمع بمثلها- ثم ذهب المختار بعد ذلك في الضلال مذاهب أخرى.

(٤) استشهاده.

(٥) الاسترقاق: الأسر، أو السبي.

(٦) مسلمة : أرشد أولاد عبد الملك، وكانت إليه قيادة الصوائف والشواتي لحرب الروم، وسيتكرر ذكره فيما يلي من فصول القصة.

ولكن مسلمة بن عبد الملك لم يخرج فى هذا الموسم لحرب الروم صائفًا ولا شاتيًا؛ فقد كان عبدالملك من أصالة الرأى وحسن التدبير بحيث رأى مُصانَعَه[1] جوستنيان الثانى قيصر الروم خيرًا له فى هذه الفترة التى تعصف فيها العواصف بالدولة الإسلامية، فصالحه على أن يؤدى إليه فى كل جمعة ألف دينار؛ ليفرُغَ لتدمير قوة ابن الزبير، ويحطم الخوارج، ويردَّ كيد ابن عمه عمرو بن سعيد[2] . . . .

وهدأت أمواج البحر، وسكن غبار البادية[3]؛ ولكن عتبة ابن عبيد الله لم يَعُدْ إلى داره بالرَّقَّة، منذ كان ذلك الحديث بينه وبين أخيه النعمان، ولم يقف له أحد على خبر!

وطال الانتظار بأهله حتى آب كل غائب، ولكنه لم يَؤُب؛ وهدأت الفتن فى الدولة الإسلامية أو كادت، وانقضى أمرُ الزبير، واغتيل عمرُو بن سعيد منافسُ عبد الملك على عرش بنى مروان واستتبَّ لهم ذلك، وعادت الصوائف والشواتى تغدو وتروح فى البر والبحر تغزو بلاد الروم فتصيب منها ما تصيب ثم تؤوب ولم يؤب عتبةُ بن عبيد الله! وقال جيرانه وأهله:

(١) المصانعة: التقرب والتماس المودة.

(٢) عمرو بن سعيد بن العاص: من سادة بنى أمية، وكان له مطمع فى الوصول إلى الخلافة؛ فاحتال عليه عبد الملك فقتله ليتقى شر الفتنة!

(٣) لا حرب فى البحر ولا فى البادية.

-يرحمه الله لقد آثر جوارَ أبى أيوب المضْياف، فمات غازيًا في بلاد الروم !

وبكت أمه ما شاءت، ثم فاءت [1] إلى الرضا بقضاء الله !

وخلعت امرأته أحمرَها وأبيضَها ولبست الحداد، ولزمت دارها تَرْأم [2] طِفلاً في حِجرها وطفلةً فى بطنها !

وقال أخوه النعمان لنفسه متأسِّيًا [3] : نِعم العزاءُ الصبرُ فى الغازى الشهيد الغريب المُطفِل [4] !

وأقسم لا يدعُ السيفَ حتى يلحق بأخيه أو يُدركَ ثأره، ولا يكون ثأره إلا بطريقًا من بطارقة الروم [5]!

وأخذ النعمان أهبته منذ ذلك اليوم للبر بما أقسم ! . .

وتتابعت الصوائف والشواتى فى البر والبحر لغزو الروم، فلم يتخلف النعمانُ بن عبيد الله فى صيفٍ ولا شتاء عن دعوة الجهاد !

□□□

(١) فاءت : عادت.

(٢) ترأم : تحنو وتعطف.

(٣) معزيًا نفسه.

(٤) المطفَل : أبو الأطفال!

(٥) زعيم من زعمائهم.

[٣]

ابنة البطريق

لم يَطب الروم نفسًا بسياسة القيصر جوستنيان الثانى، ونَقَمُوا منه(١) أنْ ضيَّع عليهم الفرصة المتاحة لاسترداد سواحلِ الشام فى سنة (٧٠) للهجرة، بعدما وطئتْها أقدامُهم وقاربوا أنَ يملكوها ويُوغلوا فى بلاد العرب لا يكاد يُدافعهم أحدٌ من جنود الخليفة المنهوكِ القوة فى قمع الفتن الناشبةِ فى الأمصار الإسلامية.

لقد كان عبدُالملك أعْرَفَ بنفس هذا القيصر وأسدَّ منه سياسة، فطلب إليه الصلحَ على مال يؤديه إلى الروم كلَّ جمعة، فتحلّب لعابُ القيصر إلى ذَهَب بنى مروان وأجاب الخليفة إلى ما طلب؛ ولكنّه لم يَنْعَمْ بهذا السِّلْم الذهبىِّ طويلاً، فما هو إلا أن فرغ عبد الملك مما كان فيه حتى مَنَعَ القيصرَ ما كان يؤدِّى إليه من مال، وجَهَّزَ الجندَ فى البر والبحر صائفةً وشاتية للغارة على الثُّغور الرومية!...

---

(١) غضبوا عليه.

وكان قادةُ جيش الروم أشدَّ سخطًا على القيصر لهذه الخيبة، فثاروا به وقبضوا عليه فجدعوا أنفه[١] ونفوه إلى بلاد القريم، ثم راحوا يتنازعون العرش فيما بينهم، فيلونه قائدًا بعد قائد، وقيصرهم فى منفاه مجدوع الأنف منكسر النفس لا يكاد يملك لنفسه أمرًا، والصوائف العربية ما تزال تُغير على الثغور والسواحل فتصيب من الروم مقاتلَ وتحمل أسارى وسبَايا وولْدَانًا[٢]. . .

وكان البطريق قسطنطين على ثغر من تلك الثغور التى تُشرف على الخليج مما يلى القسطنطينية، ما يزال يستقبل كل صيف غزاةً من العرب يُناوشهم ويناوشونه، فينال منهم حينًا وينالونَ منه، ويُصيب منهم أسرى وقَتْلى ويُصيبون؛ وكان له عند العرب ترَات[٣] وتاريخ بعيد، وقد اصطنع فى الحرب خُطة عربية، فهو يخرج إلى لقائهم -حين يخرج- ومعه نساؤه وراء الصفوف يهزجْنَ بالأغانى للتحميس ويضربن الفارّين فى وجوههم بالعُمُد أو يَحْصبنَهم بالحَصَى ليردُدْنَهم إلى الحرب[٤]؛ وقد أيقنَ قسطنطينَ البطريق أنه إلاَّ يدفع عن نفسه

(١) قطعوا أنفه!

(٢) السبايا: جمع سبية، وهى المأسورة. والولدان: الأطفال المأسورون.

(٣) الترات: جمع ترة، وهى الثأر.

(٤) كان لنساء العرب مشاركة فى الحرب، بالغناء للرجال لتحميسهم، وقذف المهزومين منهم بالحجارة أوضربهم بالعصى!

وعن ثَغره فلن يَدْفَع عنه أحدٌ من الروم الذين توزّعَتهم المطامعُ وفَتّ فى أعضادهم ما لَقُوا من الهزائم المتوالية فى حرب العرب؛ وعلى هذا اليقين رَابَط فى ذلك الثغر مدافعًا شديدَ العزم والقوة سنين طويلة !

وفجأتْهم ذاتَ مساء سَرِيَّةٌ من سرايا العرب[١]، قد هبطت فى جنح الليل على السَّاحلَ ثم أوغلت حتى طرقت القومَ فى بيوتهم على حين غفلة فأعجلتهم عن أخذ الأهبة، والتحموا أجسادًا لأجساد يتجالدون بالسيوف أو يتصارعون بالأيدى، لا يكادون يتعارفون فى ظلام الليل إلا بالتكبير والتلبية[٢]، وكان شعار المسلمين يومئذٍ :

-الله أكبر! لبيك أبا أيوب !

ووقف قسطنطين فى وسط الملحمة يرطن بالروميَّة وهو يُجيل سيفًا فى يمينه، له فى الظلام بريقٌ يُومض؛ وبَصُرَ به النعمانُ بن عبيد الله فى غَبْشَة الليل ولم يكَدْ؛ فنَهَد إليه وهو يقول وسيفُه فى يده :

-إنى لأرجو أن أبرَّ بك قَسَمى أيُّها البطريق، فأثأر لأخى أو أنال الشهادة!

(١) فرقة من فرق المحاربين.

(٢)التكبير: الله أكبر. والتلبية: لبيك لبيك.

ثم عطف عليه بالسيف فأفلت منه قسطنطينُ واحْتَوشَتَه داره[١]، واقتحم النعمان وراءه، فتهارب الصبيانُ والنساءُ بين يديه ولم ينل منالاً.

وتشتَّت شملُ أصحاب قسطنطين وذهبوا فى الأرض فارِّين لا يَلْوون على شىء قد خلَّفوا متاعهم وسلاحهم، وتخلَّف عنهم بعضُ النساء والصبيان فسيقوا إلى مَضْرب الأمير؛ وعاد النعمانُ بن عبيد الله إلى صحابته ليقاسمهم ما أفاء الله عليهم[٢] فى هذه الغارة المظفَّرة، فلم يكن نصيبُه من ذلك إلا فتاة من بناتهم لم تَنْضَجْ نضج الأنثى ولكنها جاوزت حدَّ الطُّفولة[٣]. . . وكان عليها مُطْرَفُ خَز[٤]، وقد تدلت على صدرها قلادةٌ من ياقوت، ولمعت فى مَفْرقها جوهرة[٥]؛ فقال النعمانُ: إلاَّ تكُن هذه بنتَ البطريق فإن لأَبيها بين القوم شأنًا!

ثم مال إليها يُداعبها ويسألها عن شأنها وشأن أبيها فلم تُجب بلسان، ولو أنها أجابت لما أبانَتْ، فليست تَعرفُ إلا الروميَّة، وليس يعرف النعمانُ إلا العربية. . .

(١) احتوشته داره: حاشته: حفظته ومنعت عنه العدو.

(٢) أفاء الله عليهم: منحهم الغنيمة.

(٣) أكبر من طفلة، وأصغر من شابة.

(٤) المطرف: ثوب منزلى، وهو ما نسميه «الروب». والخز: الحرير.

(٥) فى شعر رأسها جوهرة تزينه.

واستقلَّ الغزاة سفينتهم قبل أن ينبثق الفجر، وأداروا شراعها نحو الغرب، ثم انحدروا نحو الجنوب؛ يلتمسون ثغرًا من ثغور المسلمين يأوون إليه، وكلهم فَرِحٌ بما أفاء الله عليه من السلامة والغنيمةِ والظفرِ بالعدوّ!

□□□

[٤]

ويْك مسلمة!

ثبتت دعائم العرش لبنى مروان، ولم يكن الخليفة عبد الملك فى غفلة عما يقتضيه هذا العرشُ من حق التدبير فى حياته وبعد موته . . . فإنه ليخشى أن يتواثبَ إليه الطامعون من السُّفيانية أو الهاشمية بعد موته .

وقد خلَّف عبد الملك بضعة عشر ولدًا كلهم لأب ولكنَّ أمهاتهم شتى(١) : منهن العبسية، والمخزومية، والهاشمية، والسفيانية، ومنهن أمَّهاتُ أولاد(٢) من الترك والسودان والروم وبنات كسرى؛ فما أحْرَى كلَّ واحدة من هؤلاء الضرائر أن تُرَجِّى العرش لولدها، وأن ينفخَ فيه أخوالُه من روح العصبية ما يدفعه إلى الفتنة(٣) . . . .

(١) كان لعبد الملك أربع زوجات وعديد من الحظايا، وله من هؤلاء وأولئك أولاد بلغت عدتهم بضعة عشر!

(٢) الجارية إذا ولدت لسيدها ارتفعت منزلة فصارت فى مكانة وسطى بين الجارية والحرة، وتسمى حينئذ: أم ولد.

(٣) لكل ولد عصبية من أسرة أمه؟

لقد كان عبد الملك شيخًا من أهل الرأى قبل أن يلى هذا الأمر(١)، وكانوا يسمُّونه فقيهَ بنى مروان، لصلاحه وعلمه وطول ملازمته لأهل الحديث وحَمَلَة القرآن وأصحاب الرأى من العُبَّاد والصالحين وأهل التحرُّج(٢)؛ فما كان أجدرَ شيخًا هذا مكانُه أن يترك أمر المسلمين شُورى بينهم يختارون بعده من يشاءون ليَلىَ أمرهم، لولا أنه يَخْشى عليهم الفتنة؛ فَلْيُولِّ رجُلاً من أهل هذا البيت المَرْوَانىِّ ينهض بأمر الدولة من بعده، ليذهب إلى ربه راضيًا مطمئنًا قد أمن على هذه الأمة أن تتوزَّعها الفتنُ وأسبابُ المطامع!

إن أباه مروانَ قد جَعَلَ العهدَ من بعده لأخيه عبد العزيز بن مروان، ولكنَّ عبدَ الملك يرى بنيه أحقَّ بهذا العرش وأقْدَرَ على صيانته، لولا أنَّ بنيه كثير، قد تقاربوا أعمارًا وتشابهوا مزَايا وتشاكَلُوا كفاية(٣)!

لو لم يكن الوليد لَحَّانًا لا يكاد يُقيم لسانه بالعربية، متْلافًا لا يكاد يُمسك درهمًا... إنه لأحبُّ إلى عبد الملك، وإَن أمه لأدنى إلى قلبه منَزلة(٤)!

(١) قبل أن يصير خليفة.

(٢) التحرج: خوف الله.

(٣) أعمارهم متقاربة، وصفاتهم متقاربة، وكفايتهم متقاربة.

(٤) من عيوب الوليد بن عبد الملك أنه كان يلحن فى العربية، ويسرف فى النفقة.

لو لم يكن سليمانُ أكولاً تيَّاهًا كثيرَ العُجْب بنفسه . . . إن أمه العبسيةَ لترجوه كما ترجو أخاه الوليد، ولكن الوليد أسَنُّ منه[1]!

وإن هشامًا لحقيقٌ بأن يليَ هذا الأمرَ يومًا، لولا أنه جبانٌ بخيل، ولولا خشيةُ ما يَتَدَسَّسُ إليه من حُمْق أمّه المخزومية؛ وما كان عبد الملك ليولِّي عهده ابنَ مطلَّقته الحمقاء ويَدَعَ الذين نشئوا على عينيه من بنيه[2]!

وإن يزيدَ لأعْرَقُ بنيه أمومة[3]، فأمُّه عاتكةُ بنتُ يزيدَ بن معاوية : أبوها الخليفة[4]، وجدها خليفة[5]، وزوجها خليفة[6]؛ فما أحرى ولدها أن يكون خليفةً كذلك فيضمَّ المجدَ من أطرافه، لولا أن يزيدَ لم يزل صبيّاً لم يَبْلُغ مبلغ أهلِ الرُّشد!

وهناك-إلى هؤلاء-عبدُ العزيز بن مروان، أخو الخليفة؛ ما

(١) ومن عيوب سليمان أنه كان نهمًا لا يكاد يشبع، كثير الإعجاب بنفسه، وكان أصغر سنًا من الوليد.

(٢) وكانت أم هشام معروفة بالحماقة؛ ولذلك طلقها.

(٣) يعني أن أم يزيد كانت أعرق نسبًا من جميع الأمهات، ولكنه كان طفلاً . .

(٤) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثاني ملوك الدولة الأموية.

(٥) هو معاوية مؤسس الدولة.

(٦) هو عبد الملك نفسه.

يزال يطمع فى العـرش بعـد عـبـد الملك، بعـهـدٍ من أبيـه مروان[1]!

ولكنْ ما بالُ عبدِ الملك لم يذكر ولدَه مَسْلَمةَ، وإنه لأشَبُّ بنيه شبابًا وأجرؤهم قلبًا وأسَدُّهم رأيًا وأكثرهم حَمِيَّة، وله الراياتُ البيضُ لم تزل تخفق على السفائن غاديةً على سواحل الروم للغزو، أو مرفرفةً فوق رءوس الجند فى البَرِّيَّة لبَيَات العدو[2] . . . ولكن مسلمة-إلى كل ذلك-من أبناء الجوارى؛ فكيف يليها ابن الرومية ويُحرمهما أبناء الحرائر من بنات عبس ومخزوم وأمية[3] ! . . .

***

أقيـمت حَلْبَةُ السِّباق فى ظاهر دمشق على العـادة فى كل موسم[4]، وتقدَّم فتيانُ العرب بأفراسهم المضـمَّرة يطمعُ كل منهم أن ينال بالسبق جائزه أمير المؤمنين عبد الملك؛ وجلس عبد الملك على شرفٍ فى طرف الحَلبة[5] قد أقيم له سرادق من

(١) كان عبد العزيز بن مروان، أخو عبد الملك، أميرًا، فى مصر، وكان أبوه مروان بن الحكم قد جعله وليًا للعهد بعد أخيه.

(٢) البيات: الهجوم الباغت.

(٣) عبس، ومخزوم، وأمية: قبائل عربية.

(٤) كان للعرب عناية بسباق الخيل، لا للمراهنات، بل لتشجيع الفروسية . .

(٥) شرف فى طرف الحلبة: منصة فى صدر الميدان.

خزّ ونُصبت على رأسه راية بيضاء؛ وكان الشوط الأول للأمراء من بنى عبد الملك : الوليد، ومسلمة، وسليمان، ويزيد، وهشام.

وأشار رائضُ الحلبة إشارته[1]، فوثب الأمراء على ظهور جيادهم وشدوا اللُّجُم ومالوا على الأعناق، يتبعهم الآلاف بعيون جاحظة وأنفاس مبهورة وأعناق تتلوَّى على كواهل أصحابها، وبدا كأنَّ مسلمة سيبلغ آخرَ الشوط قبل إخوته، فبدت الكراهة فى وجه عبد الملك، على حين انبعث من جوانب الحلبة هُتَافُ الجماهير باسم الأمير المظفَّرِ فى كلِّ غزَاة : مسلمةَ بن عبدَ الملك !

ولكن فرس مسلمة لم يلبث أن عثر براكبه، ثم لم يكد ينهض ليستأنف عَدْوه حتى سبقه إخوته جميعًا وبلغوا آخر المدَى . . .

وطأطأ مسلمة رأسه أسفًا وهو يتقدم فى صف من إخوته إلى مجلس أبيه فى سرادقه ذاك، ليستمع إليه وهو يُنشد متمثلاً[2] :

نهيتكمو أن تحملوا فوق خيلكم

هجينًا[3] لكم يوم الرهان فيُدرك

(١) رائض الحلبة : هو الحكم.
(٢) متمثلاً: قائلاً من شعر غيره.
(٣) الهجين : هو غير الخالص العروبة.

فتعثر كفاه، ويسقط سَوْطه،
وتَخدرَ ساقاه فما يتحرك
وهل يستوى المرءان هذا ابنُ حرةٍ
وهذا ابنُ أخرى ظهرها متشرّك ؟

قال مسلمة وقد بدا فى وجهه الغضب :

-يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، ليس هذا مثلى، ولكن كما قال الآخر :

فما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناهم بأرماحنا قسرا[1]
فما زادنا فيها السِّباء مَذلةً
ولا كُلِّفتْ خَبْزاً ولا طَبَخت قِدْرا[2]
وكم قد ترى فينا من ابنِ سَبِيَّةٍ
إذا لقى الأبطال يَطْعنُهم شَزرا
ويأخذ رَيَّانَ الطِّعَان بكفِّه
فيُوردها بِيضاً ويُصدرها حُمرا

(١) خطبناهم قهرًا، بسيوفنا!
(٢) السباء : الأسر.

ثم أردف :

- إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات يا أمير المؤمنين ، وقد كانت أم إسماعيل بن إبراهيم جارية[1] . . .

ولمعت دمعتان فى عينى عبد الملك واختلجت شفتاه ، فقال وهو يميل على مسلمة فيقبِّل رأسه وعينيه :

- أحسنت يا بنى ، ذاك والله مكانُك !

وانفضّت الحلبة ، وعاد عبد الملك إلى قصره وعاد بنوه ؛ ولكن حديثًا مَا ظلَّ يدور فى رأس عبد الملك منذ ذلك اليوم ، ويدورُ مثلُه فى رأس مَسلمة وفى رءوسٍ أخرى . . .

□□□

(١) إسماعيل بن إبراهيم : هو أبو عرب الشمال ، وكانت أمه جارية .

[٥]

أمهات الملوك!

في غرفة من غرفات القصر الأموىّ الشامخ بدمشق، اجتمع أربع نسوة لم يجتمعن من قبل على مودّة :

ولاّدة بنت العباس العبسي، وعاتكةُ بنت يزيد بن معاوية، وعائشة بنتُ موسى بن طلحة التَّيْمى، وأمُّ أيوب بنت عمرو ابن عثمان بن عفّان : زوجات عبد الملك؛ لم يتخلف عن مجلسهن إلاّ مطلَّقتُه أمُّ هشام المخزومية !

قالت ولاّدة، أمُّ الوليد و سليمان، بعد صمت :

- بلى، قد أحل الله له فراشَ جواريه فهنَّ له حلائل، ليس لواحدة من زوجاته أن تَمْنَعَهُ أن يفيء إلى خَلَواتهن في أى وقت شاء من ليل أو نهار؛ ولكن للحرائر من زوجاته العهدَ والأمومة؛ إن الوليدَ و سليمان، وإن يزيد وأبا بكر والحكم وهشامًا، لأولى بعهد أمير المؤمنين من عبد الله ومَسلمة

ومحمد وسعيد ومَنْ لا أذكر من أبناء جواريه وإمائه؛ فليطبْ لهن فراشُ عبدَ الملك؛ أما عرشُ أمية فلن يكون لأحد من أبنائهن !

قالت عاتكةُ أم يزيد :

- أتَرَيْنَه يا ولأّدة يَغْفَلُ عن ذلك الحق ؟ إنه لأسدُّ رأيًا من ذلك؛ وقد سألته أمس، حين أوى إلى مقصورتى لبعض الراحة حين مُنْصَرَفه من حَلْبة السباق، عما حدثنى به يزيدُ من إقباله على مَسْلَمَةَ دون إخوته، وتقبيله على ملأ من الخَلْق فى رأسه وعينيه، واستنشاده إياه شعرًا يعرِّض فيه بأبناء الحرائر؛ فضحك عبد الملك وقال : أظننت يا عاتكة أننى أفعلها ؟ إنى لآملُ أن يكون يزيدُ على عرش بنى أمية خلفًا من أبيه وجدِّه وجدِّ أمِّه!

انقلبت سَحْنَةُ ولأّدة كأنما أصابها المسخ، ونسيت مجلسها من ضرائرها وما دعتهن إلى الحديث فيه، فقالت منكرة :

- أىَّ شىء تقولين يا عاتكة ؟ وهل أوَى عبد الملك إلى غير مقصورتى حين مُنْصَرَفِه من حلبة السباق ؟

قالت عائشة بنت موسى :

- نعم، وجلس إلىَّ ساعة يُرقِّص أبا بكر ويغنى له :

يـا مَـلِـكًـا مِـن مَـلِـكٍ مِـن مَـلِـكِ
تـهْ واسْـتَـطِـلْ عَلَـى المَلا وامْـتَـلِـكِ
وكِـدْ مُـلـوكًـا كـنُـجُـوم الحَلَـكِ
يَـسْـتَـبِـقُـون للعُـلاَ فى فَلَكِ !

قالت أم أيوب العثمانية مُحْنَقَة :

أمَّا الحكمُ ابنى فلم يرقِّصه أحدٌ أو يغنِّ له؛ إذ كانتْ أمه- بنتُ عثمانَ الخليفة المظلوم(١) -أقلَّ منزلة عند عبد الملك من بنات عَبْسٍ وتَيْمٍ ويزيدَ بنِ معاويةَ !

ثم جمعت أطراف ثوبها ونهضت مُعْجَلة إلى مقصورتها، لم تحيِّ أحدًا أو تسمعْ إلى تحيته، ونهض صواحبها كذلك فتفرقن فى حجراتهن !

***

ودخل مسلمة على أمه «ورد» ليشهد فى عينيها دموعًا حائرة، فلا تكاد تراه مقبلاً حتى تُرسل دموعها وتُطرق فى انكسار. . .

(١) كان أبوها عثمان بن عفان، الخليفة الثالث، وقد مات قتيلاً، وقامت الدولة الأموية على أساس المطالبة بثأره؛ فما أجدر ابنته أن تكون فى مكان الحظوة العالى.

- ماذا بك يا أماه ؟

- لا شيء يا مسلمة !

- ولكنك تبكين ياأماه!

- لا تصدّق كلَّ ما ترى عيناك يا مسلمة !

- هل نالك أحد بمساءة ؟

- ومن ذا ينالنى بالمساءة وأنا أمُّ مسلمة وحَظِيَّة عبدِ الملك أميرِ المؤمنين وسيدِ بنى مروان !

- لعل أمير المؤمنين نفسه . . .

- وكيف يسوءنى أمير المؤمنين وأنا ولدتُ له مسلمة ؟

- فَلِمَ إذن تبكين يا أماه ؟

- من أجلك يا مسلمة !

- من أجلى؟

- نعم! فلو لم أَلِدْكَ لكنتَ اليوم ولىَّ عهد أمير المؤمنين(١)!

- لو لم تلدينى يا أماه لَم يلدنى غيرُك؛ وما تطيبُ نفسى بغيرك أمّاً ولو كانت . . . .

(١) تعنى : لو لم تكن أمك جارية، لكنت أحق بالعهد من كل إخوتك .

- صه! حَسْبُك ما أوغَرْتَ من صدروهن عليك!

- وماذا يُوغرُ صدورَهنَّ على مسلمةَ وإنه ليحملُ العبءَ كلَّه عن أبنائهن؛ فهو المدعوُّ لكلِّ كريهة، وعليه أعباؤها دون غيره من أبناء عبد الملك، فما تزال تتقاذفه الفلواتُ وأمواج البحر من مفازة مُهلكة إلى ثغر مَخوف، ليمكِّن لعرشٍ يتنازعه مَنْ لم يَسُلَّ سيفًا من غمده للدفاع أو يحملْ راية!

- من أجل ذلك بكيت لك يا مسلمة!

- ولكنى سعيد يا أماه بما أبذل، ولست أطمع-ولا أريد- أن أحمل أوزاره[1]، فليحملوا منها ما قدروا عليه، وليدَعوا لى سيفى وفَرسى ورايتى أجاهدْ فى سبيل الله!

- تخادعُنى يا مسلمة!

- لا والله يا أمّ، وإنى ليسعدنى أنك ولَدْتِنى أكثرَ مما يُسعدنى أنَّ أبى هو أمير المؤمنين عبد الملك!

- صدق حَدْسُك[2] يا مسلمة!...

- ماذا؟

- لا شىء!

(١) لا أريد أن أحمل أثقال الخلافة وتبعاتها.

(٢) الحدس: التخمين.

- بل قلت شيئًا !

- دع هذه يا مسلمة ولا تُلحف !

- تريدين أن تطوى عنى سراً. . . .

- نعم !

- أىّ سر ؟

- السرُّ لا يُسأل عنه يا مسلمة !

- هو إذن سرٌّ يَشين !

- أخطأتَ وأسأتَ يا مسلمة .

- وهل يكتُمُ المرءُ من سرِّه إلا ما يَشين؟

- نعم، وما يَضُرّ !

- يضرُّنى أو يضرُّك يا أم؟

- يضرُّنى و يضرُّك يا مسلمة !

- لم أفهم بعد !

- خيرٌ لك ألاّ تفهم !

- ولكن سـراً تطوينه عنى وفـيـه مَـضَـرَّة. . . يثـقُلُ على ضميرى ويُبلبل خاطرى !

- ليتنى لم أبدأ حديثًا معك يا مسلمة !

- ولكنك بدأتِ !

- ولكنى بدأت !

- ووقفتِ عند كلمة السر فطويتها عنى وتركتنى فى بَلْبلة !

- اسمع يا مسلمة !

- هيه !

- أنت يا بُنَىَّ صاحبُ اللواء فى هذه الدولة؛ ما تزال تقود الجند لحرب الروم فتثخن فيهم قتلاً وتجريحًا وأسْرًا، حتى أرهقتَ الرومَ من أمرهم عُسرًا؛ فهل تجد يا بنىّ راحةَ نفس فيما تفعلُ من ذلك ؟

- نعم يا أم !

- فكيف تصنع يا بنى إذا عرفت أن هؤلاء الروم خُؤولتَك ؟

- قد عرفتُ ذلك منذ بعيد. . . . أفهذا هو السرُّ الذى تطوينه عنى ؟

- نعم يا مسلمة !

- ليس ذاك. . . .

- تريد أن أزيدك يا مسلمة ؟

- نعم !

- فاعلم-وعليك وحدك تَبِعةُ هذا العلم-أنك تركب من الأمر عظيمًا فى حرب الروم !

- ماذا تعنين ؟

- أنت تطلب رأسَ جدِّك !

- جدِّى ؟

- نعم، أبِى ! . . .

- وما تزالين تذكرين أباك يا أم ؟ . . .

- نعم، كأنه بعَيْنِى منذ ساعات !

- واسمه ؟

- قسطنطين . . .

- كلُ رومىّ قُسطنطين !

- ليس مثلَ أبى قسطنطينَ أحدٌ من الروم !

- أهو قَيْصَر ؟

- كأنْ قد بلغَ هذه المنزلة !

- ولم يبلُغْ بعد ؟

- لستُ أدرى ، فقد انقطع ما بينى وبينَ أبى منذ صرتُ إلى عبد الملك !

- وكان أبوك يومئذ . . .

- بطريقًا يؤهله نسبُه وجاهُه إلى العرش !

***

أطبق الفتى شفتيه وحدّق فيما أمامه وأمال رأسه إلى جانب وسبح فى أوهامه ؛ وجلست أمه بإزائه صامته ترمُقُه بعينين فيهما حُبٌّ وإشفاق ووَجل .

وطال صمت الفتى حتى قلقت أمه ، فقالت فى حنان وعطف :

- لقد طَوَّفتَ بعيدًا فى أوهامك يا مسلمة !

- نعم !

- وهل عُدت ؟

- نعم !

- وماذا رأيتَ فى سَرْحَتك يا بُنى ؟

- رأيت أباكِ ؟

- جدَّك ؟

- نعم !

- وقلت له . . . وقال لك . . .

- لم أستمع إلى قولٍ منه أو يستمعْ إلى قولٍ منى !

- تغاضبتما إذن ؟

- نحن متغاضبان منذ كُنَّا . . . إننى أنا مسلمة بنُ عبد الملك ، وهو قسطنطينُ وحَسْب !

- ولكنه أبو أمِّك !

- قد كان ذلك يومًا ، أما اليوم فلستُ منه وليس منى !

- وإذن فلم يغيِّر من رأيك شيئًا أنْ عَرفْتَ هذا السر ؟

- بل قد أجَدَّ لى عزمًا جديدًا . . . .

- وما ذاك ؟

- أن لمسلمة حقًا فى عرش القياصرة ، فسأحارب الروم منذ اليوم على عرش قسطنطين لأستخلصه لنفسى غير غاصب بحقٍّ أمومتك !

- الآن طابت نفسى يا مسلمة !

- طابت نفسك بتقويض عرش القياصرة من آبائك وآلك ؟

- ذلك شىء آخر !

- فماذا تعنين إذن ؟

- لقد كنت أخشى يا مسلمة -لو عرفتَ سر أمّك- أن تَطْفَأ في قلبك جذوة الحماسة لحرب الروم، وهى كلٌّ ما تملك يا بنىّ من أسباب المجد حين يتفاخر أبناء عبد الملك؛ فالآن قد أمنتُ وطابت نفسى !

- الحمد لله !

- وسرٌّ آخر لم يزل يحيك فى صدر أمك يا مسلمة . . .

- ماذا يا أمّ ؟

- ولا تَغْضَب ؟

- لن أغضب لما يُرضيك يا أماه . . .

- تُنازعنى نفسى إلى القسطنطينية حيث نشأت !

- تريدين أن أردَّك إليها ؟

- بل تردها إلىّ . . .

- لست أفهم !

- إننى آمل أن أجد ولدى مسلمة يجلس منها على عرش القياصرة؛ ذلك حُلمى القديم منذ كنت فتاة لم تُدرك؛ فقد علمت يا مسلمة أن بنات الروم -كبنات العرب- لا يَحْلُمْنَ

حُلْمًا أمجد ولا أسعد من أن تكون إحداهن أمّاً لقيصر ، وقد حسبتُ أنى وجدتُ تعبير رؤياى هذه حين ولدتُك لعبد الملك ، أما وإخوتُك كما ترى يتسابقون دونك إلى ولاية عرش أمية ، فإنى أرجو لرؤياى تعبيراً آخر رُوميًا لا يعرف من الملوك غير قيصر !

- بل عرش قيصر وعرش أمية !

- صه !

- ماذا ؟

- أخاف عليك كيد بنى مروان يا مسلمة !

- لكن مسلمة لا يخاف يا أماه !

❑❑❑

[٦]

ولىُّ العهد

تغيَّر كلُّ شىء فى نظر مسلمة منذ ذلك اليوم الذى سابقَ فيه إخوتَه فى حلبة الخيل بين يدى أبيه فسبقوه؛ وكأنه لم يدرِ إلا يومئذ أنه ابنُ جارية . . . فلتكن أمُّه تلك من بنات الملوك أو من بنات الملائكه، فليست فى أعين الناس جميعًا إلا جارية !

ولم يقع فى وهم مسلمة قبل ذلك اليوم أن أباه قد يختاره لولاية عهده ويرشحه للجلوس على عرش الخلفاء فى دمشق؛ فلو أن أباه اختار غيره من إخوته قبل ذلك اليوم لولاية العهد لما ثَقُلَ عليه ذلك ولا التمس السبيل إلى معرفة أسبابه؛ أما اليوم فإن له فى نفسه وفى إخوته رأيًا آخر . . . فقد وجد نُدْبَةً فى قلبه(١) من حديث أبيه إليه بعد السباق، ومما بلغه من حديث زوجات أبيه بعضهن إلى بعض، ثم من حديث إلى أمه؛

(١) جرحًا فى قلبه.

ولكن رأيه ذاك وما ناله من المساءة فى حَديث أبيه وحديث زوجات أبيه، لم يكن ليغيِّر موقفه من إخوته شيئًا؛ فليكن العرش والتاج لمن شاء أبوه من إخوته أو من غير إخوته، فليس يعنيه ذلك فى شىء؛ إنهم أحوج إلى مسلمة منه إليهم؛ إنه سيف بنى عبد الملك، وحامل رايتهم فى الجهاد، وصاحب رأيهم فى السلام، رَضُوا أو سخطوا؛ فليستأثروا بعرش بنى أمية، فإن له عرشًا فى قلب كل عربى بين المشرق والمغرب؛ وإنه ليأملُ فوق ذلك أن يقتعد عرشَ جوستنيان فى القسطنطينية ويتخذها دار هجرة، فينزل فى بلد خُؤولته ضيفًا على أبى أيوب الأنصارى ! . . . .

❊❊❊

لم يَعُد النعمان بن عبيد الله إلى دار أهله فى الجزيزه منذ خرج ليطلب ثأر أخيه عتبةَ فى بلاد الروم؛ فقد اتخذ فى اللاذقية[1] أسرة و دارًا يأوى إليهما كلما عاد من صائفة أو شاتية؛ وما كان ليأوى إليها إلا أيامًا أو أسابيع يعود بعدها إلى ما بدأ، صائفًا أو شاتيًا.

وكان له نِكايةٌ وصبرٌ على القتالِ واستماتةٌ فى المعركة؛ لا

(١) اللاذقية: ثغر على شاطئ سورية، وهى اليوم ميناء الجمهورية السورية.

يقتحمها إلا وقد كَسَر جَفْنَ سيفه[1] فلا يُغمده إلا فى اللَّبَّات[2] والصدور والجُنوب؛ وكان شعاره فى الحرب : لبَّيك عتبة! لبيك أبا أيوب ! وكم تعرَّض للشَّهادة فأخطأته وعاد مُثقلاً بالغنائم وفى كفِّه سيفٌ بلا جفن يَقْطر دمًا، وكم احتزَّ من رءوس، وبَقَر من بطون، وشقَّ من مرائر، ولكنه لم يَنَلْ مرة واحدة رأسَ بطريق من بطارقة الروم ثأرًا لأخيه. . .

وتشيعُ بطولة النعمان بين القوم، ويتحدث المُشاة والركبان بأنباء معاركه المظفَّرة، حتى تبلغ تلك الأنباء أمَّه وعشيرته فى أرض الجزيرة، فتدمع عينا العجوز الثكلى، وترفع يديها إلى الله ضارعة أن يكلأه ويرعاه، ليكون خَلَفًا من أبيه وأخيه. . . وتهمس الشفاه باسمه فى ثغور الروم خائفةً وَجلةً؛ فتتعوذ منه بالمسيح والعذراء؛ إنه لينال بالرعب من أعدائه أكثر مما ينال بسيفه !

وكان النعمان أثيرًا عند مسلمة[3] منذ شهد ألوان بطولته، فأدناه منزلة وقرَّبه مجلسًا، وصار له عنده نَفَل مضاعف[4] من أسلاب كل معركة !

(١) جفن السيف : غمده.
(٢) اللبات : جمع لبة، وهى العنق.
(٣) مقربًا إليه، يؤثره على غيره من أصحابه.
(٤) نصيب مضاعف من الغنائم.

وعاد النعمان ذات خريف من صائفته ليستقبل ضيفًا جديدًا على الدنيا؛ فقد وُلد له مولودٌ ذكَر؛ ها هو ذا يستهلُّ صارخًا يُؤذن أباه بمَقْدمه؛ ورنّ صراخُه الأعجم في أذن أبيه كأنما يسمع منه صائحًا يهتف في المعركة : لبَّيك أبا أيوب ! فمال عليه يقبِّله في المهد وهو يجيب : لبّيك يا عتبة ! وصار اسم ذلك الصبي من يومئذٍ : عُتيبة بن النعمان.

وكأنما خشي النعمان-وقد صار أبًا-أن تكون أبوَّتهُ مَجْبَنَةً مَبْخَلة(١)، فاحتمل أهله وولده إلى الرَّقة حيث تقيم أمُّه وعشيرته، وعاد مُعجلاً إلى الثغر يتربَّص بالروم في كل صائفة وشاتية؛ وعاش الصبيُّ بين جدته وبني عمومته، وخفَّ أبوه إلى الميدان !

***

المعارك تتوالى بين العرب والروم، والسفن العربية عليها الرايات البيض تغدو وتروح في بحر الروم بين أقريطش(٢) وقبرص وأرواد(٣) وسواحل القسطنطينية.

ما أجدر هذا البحر الأبيض أن يسمى «بحر العرب» ! إن

(١) سببًا للجبن والبخل.

(٢) أقريطش: جزيرة في البحر، تسمى الآن: كريت.

(٣) أرواد: جزيرة صغيرة في البحر بالقرب من طرطوس في الشام.

جند العرب لتحتل شاطئه الإفريقى والآسيوى جميعًا من المضيق إلى المضيق، وما فيه من جزيرة إلا ارتفع فيها الأذان ورفرفت عليها الراية العربية، وإن قوات الفتح لتوشك أن تثب من شاطئ إلى شاطئ فتبلغ القسطنطينية فى الشرق وجزيرة الأندلس فى الغرب، ثم تمدّ مدًّها حتى يلتقى جناحاها فى الأرض الكبيرة[1] فلا يكون على شاطئ هذا البحر من فوق ولا من تحت إلا نفوس عربية مؤمنة تعجّ بالتكبير والأذان !

« أقيموا المآذن فى كل أفق يُذكر عليها اسم الله: الله أكبر..».

واستجاب المسلمون للداعى، وتفرقت جيوش المسلمين فى الأرض: محمد بن القاسم الثقفى[2] فى الهند والسند يكتسح معاقل الكفر ويدعو إلى عبَّاد الوثن....

وقتيبة بن مسلم الباهلى[3] فى خراسان وبلاد الترك يُثخن فى الأعداء إثخانًا بليغًا وينشر اسم الله فى البريَّة الشاسعة بين الصين وجبال القَبج[4].

(١) كان العرب يسمون وسط أوربا: الأرض الكبيرة أرض رومية.
(٢) من قادة جيوش الفتح فى ذلك التاريخ.
(٣) من قادة جيوش الفتح فى ذلك التاريخ.
(٤) جبال القبج: هى جبال القوقاز، من أرض روسيا الآن.

وموسى بن النصير اللَّخمى[١] يحاول خطة لم يحاولها عربىٌّ قبله، فيجهّزه مولاه طارق بن زياد لفتح أوربا . . . .

ومسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان[٢] ومن معهم من أبطال البر والبحر يضيّقون الحصار على قصبة بلاد الروم[٣]، فيتهاوى ما يليها من المعاقل معقلاً بعد معقل حتى تُوشك مدينةُ قسطنطين الأكبر أن تدين بالولاء والطاعة للخليفة فى دمشق !

ولكن الخليفة قد تقدمت به السن ويوشك أن يدركه أجله، وهو لا يريد أن يترك هذه الدولة طعمة للطامعين يتنازعون حول العرش حتى تذهب ريحُهم وتقتلعهم العاصفة فترمى بهم إلى البادية حيث بدءوا الزحف منذ بضع وثمانين سنة.

ويرى عبد الملك أن يختار ولى عهده ليبايع له قبل أن يموت؛ فتخفق القلوب حوله وتطمح الأعين إليه . . . .

ويرى عبد الملك رؤيا، فيبعث إلى المدينة من يقصُّها على سعيد بن المسيَّب[٤] يسأله تأويلها، ويقول سعيد لرسول عبد الملك : قل له : إن أربعة من بنيه سيَلُون هذا الأمر؛ فليُحسن إعداد بنيه لاحتمال تبعاتها !

(١) من قادة جيوش الفتح فى ذلك التاريخ.

(٢) من قادة جيوش الفتح فى ذلك التاريخ.

(٣) قصبة بلاد الروم: عاصمتها: القسطنطينية.

(٤) سعيد بن المسيب : فقيه من أهل الرأى، كان له فطنة فى تفسير الأحلام.

وتشرئبُّ الأعناق إلى قصر الخلافة، وتصطرع المطامع فى نفوس بضعة عشر ولدًا من أبناء عبد الملك، وفى نفوس بضعَ عشرةَ من زوجاته وأمهاتِ أولاده.

أيجعل العهد لأربعة من ولده ؟

ومن يكون هؤلاء الأربعة ؟ . . . . . .

ما أحرى هذا أن ينشئ العداوة والبغضاء بين بنى أبٍ واحد؛ وما يدريه ما ترتيبُ آجالهم فى لوح القدر وإن أسنانهم لمتقاربة ؟

لا، فليَدَعْ سعيدَ بنَ المسيَّب يعبِّر الرؤيا على أىٍّ وجه شاء، وليدبِّرْ هو أمره على ما يرى؛ لقد استأثر الله بالغيب فلم يُطلع عليه أحدًا من خلقه!

فليولِّ عهده واحدًا وحسب، وليأخذ له البيعة من إخوته؛ فإن ذلك حقيقٌ بأن يُبقى على وحدتهم ورأيهم؛ وليكن ولى عهده الوليد. . . .

ولكن أخاه عبد العزيز بن مروان يطمع أن يناله، وقد أوصاه به أبوه قبل مصرعه؛ فما أحراه أن يحفظ وَصاةَ أبيه فى عبد العزيز، ليحفظ بنوه وَصاتَهَ ؟ . . . .

فلتكن ولاية العهد إذن، للوليد بن عبد الملك وعمّه عبد العزيز بن مروان جميعًا !

ولكن عبد العزيز لا يلبث أن يجيء نعيه من مصر وتنحلّ العقدة المستعصية، فيجعل عبد الملك عهده من بعده لولديه: الوليد، ثم سليمان، ابني ولاّدة العبسية !

وتتم البيعة، ويحلف لهما بنو مروان وبنو أمية جميعًا، ثم تؤخذ لهما البيعة من الأمصار . .

ويُؤوى عبد الملك إليه أولاده ليقول لهم :

« يا بني عبد الملك، أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمةٌ باقية، وجُنَّةٌ[1] واقية؛ وليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والفُرقةَ والخلاف؛ فبهما هَلَك الأوّلون؛ وذلّ ذوو العز المعظَّمون. وانظروا مَسلمة، فاصدُروا عن رأيه؛ فإنه بابكم الذي منه تعبرون، ومِجَنُّكم[2] الذي به تستجنُّون؛ وكونوا بني أمٍّ بررة[3]، وإلا دبَّت بينكم العقارب؛ وكونوا في الحرب أحرارًا، وللمعروف منارًا . . . » .

(١) جنة: ستار واق.
(٢) المجن: الترس.
(٣) إخوة بررة.

ثم يُقبل على ابنه الوليد فيقول :

«لا ألفينَّك إذا مُتُّ تعصر عينك وتحنُّ حنين الأمَة[١]، ولكن شمِّر واتزر، والبس جلد النمر، ودلِّنى فى حفرتى وخلِّنى وشأنى وعليك شأنك، ثم ادعُ الناس للبيعة؛ فمن قال هكذا . . . . . فقل بالسيف هكذا . . . »[٢].

ثم يُغمض عبد الملك جفنَه!

❑❑❑

(١) الأمة : الجارية.

(٢) يعنى : من عصى فاضربه بالسيف!

[٧]

راهب البلقاء

ويجلس الوليد بن عبد الملك على عرش بنى مروان فى دمشق، وتستمرُّ الفتوح شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، ويشرع الوليد فى بناء مسجد دمشق[١]، ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ويأخذ فى تعمير المرافق، وإعانة الزمنى[٢]، وتأمين المحتاجين وذوى الخَلة[٣]؛ ويتردد اسمُ الوليد بين أربعة أقطار الأرض. . . .

وتقول وَرْدُ لولدها مسلمة :

- كيف رأيت أخاك الوليد على العرش يا أبا سعيد ؟

- رأيتُ خيرًا يا أمّ، لو وَفَى لأخيه سليمان !

(١) هو المسجد الأموى بدمشق، وما يزال قائمًا حتى اليوم.

(٢) المرضى بأمراض مزمنة.

(٣) ذوى الاحتياج.

- ماذا؟

- أحسبه يا أمُّ يحاول خَلْع أخيه من ولاية العهد ليجعلها لولده !

- وعهدُ أبيه ووصاتُه له ؟

- لقد همَّ أبوه أن يغدر بأخيه عبد العزيز لولا أن عَجِلَ إليه أجلُه ؛ فما أجدر الوليد أن يغدر بسليمان[1] !

- إلا أن يَعْجَلَ إليه أجلُه[2] !

- من تَعنين يا أماه ؟

- لم أعنِ أحدًا ؛ فليَختَر القدر[3] !

- ولكن سليمان حقيقٌ بأن يليها !

- كلاهما أخَوان لأبٍ وأم !

- ولكن راهبًا فى دير منعزل من أرض البلقاء[4] أنبأنى أن سليمان سيليها ويفتحُ الله عليه بلادًا لم تطأها من قبلُ قدمُ عربى !

- أىّ بلاد حدسْت[5] ؟

(١) يعنى أنه يريد أن يخلع سليمان، كما أراد أبوه أن يفعل بأخيه.

(٢) يموت!

(٣) هذا أو ذاك كما يشاء القدر!

(٤) فى شرق الأردن.

(٥) حدست: خمنت.

- القسطنطينية . . . .

- مُرادك بعيدٌ يا مسلمة، فما دامت هذه الأسوار، وتلك الحصون، وهذه النار الروميةُ التي يقذفونها على الغُزاة فما تدع من شيء إلا جعلته ترابًا، فلستُ آملُ أن تُفتح عليكم حاضرةُ الروم من ذلك الطريق !

- ولكننا سنأخذ عليها كلَّ طريق، ونسلك سبيل البحر والسهل والجبل، من الشرق والغرب والشَّمال والجنوب؛ فلا تملك إلا التسليم !

- أيّ شمال وجنوب؟ وأيّ شرق وغرب ؟

- لقد وطئ جيشُ العرب جزيرةَ الأندلس يا أماه؛ فما أسرع ما تنثال[1] جيوشهم فى الأرض الكبيرة زاحفةً نحو الشرق؛ فيقتحمون على القسطنطينية أبوابَها من الغرب؛ وقد ملك قُتيبة بن مسلم من أقصى بلاد الترك إلى جبال القَبج وبحر بنطش[2]، فما أسرع ما يثب من البحر إلى الساحل؛ وهذا جيش مَسلمة[3] ما يزال يُراوحها ويغاديها من البر والبحر؛ فهل تَرَينَ لها خلاصًا بين هذه القوات الأربع ؟

- ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين ؟

---

(١) تنثال: تتابع.
(٢) هو البحر الأسود.
(٣) يعنى نفسه.

- ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين، ويحققُ لأمّه أمنيّة، ويدعُ أبناء عبد الملك يتصارعون على عرش أمية !

- وتكبت عدوِّى وعدوَّك يا مسلمة ؟

- ويبلغ عدوى و عدوُّك من هوانِ الشأن ما لا يحمل أحدًا على التفكير فى أمره !

❋❋❋

كان الإسلام فى ذلك العهد دينًا خالصًا لله، كأوَّل عهد المسلمين به يَوْمَ نَزَل، لم تدخله خُرافةٌ ولم يغلب عليه باطلٌ ولم يبتدع فيه مُبطلٌ حَدَثًا، إلا بعضَ ميراث الجاهلية فى العامة من الإيمان بالنجوم والتماسِ علمِ الغيب عندها[1]، وإلا مطمعَ بعض الخاصَّة فى صدق الرؤيا والهاتف وحَدْسِ النفس المؤمنة[2]، فقد حدَّثهم مَنْ حَدَّث أن النبى ﷺ قال: إن الرؤيا بَضْعَةٌ من النبوَّة[3].

وإلا بعض ما ألهمتْهم آياتٌ من القرآن الكريم عما يتوارثهُ بعضُ أهلِ الكتاب من علمٍ عن الغد يجدونه مكتوبًا عندهم فى الإنجيل والتوراة[4]، فهم يلتمسونه عند الرُّهبان المنقطعين

(١) التماس علم الغيب عند النجوم.

(٢) الإلهام. (٣) جزء من النبوة!

(٤) فى القرآن الكريم آيات تشير إلى شىء من علم الغد فى التوراة والإنجيل.

للعبادة فى الأديار والبيَع[1] المنتشرة فى أرض البلقاء ووادى الأردن وأرباضِ الشامَ[2] وأطراف الجزيرة؛ وإلا ما أحدثه بعضُ الفرقِ الإسلامية الناشئة مما يسمونه علم الملاحم ويُسندونَه إلى فلان، إلى فلان، إلى على بن أبى طالب، ويزعمون أن فيه علمَ الغد كلَّه مكتوبًا فى «جفر»[3] على سبيل الرمز والإيماء فلا يحلُّ طِلسمَهُ إلا من أوتى حظاً من علم !

وكان إيمان الناس فى ذلك العهد بهذه المستحدَثات يختلف باختلاف بيئاتهم وميراثهم العقلى وحظِّهم من فهم الإسلام.

ولكن كلَّ نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرَّ فى غدها من غيب الله[4]؛ فلا عجب أن نرى -فى مثل ذلك العهد- طائفةً من أهل التمييز والبصيرة لا تستنكف من غشْيَان الأديار وصوامعِ الرهبان تسألهم بعضَ ما عندهم من علم الغد !

وكذلك رأى مسلمة بن عبد الملك نفسه مَسُوقًا ذات يوم إلى دير من هذه الأديار يسأل راهبها بعضَ ما عنده، وكان

(١) البيع: المعابد المسيحية.

(٢) ضواحى الشام.

(٣) يعتقد بعض الشيعة أن علم المستقبل كله مكتوب فى جفر -والجفر هو جلد الثور- على سبيل الرمز، وأن تفسير ذلك الرمز يتوارثه علماء الشيعة دون غيرهم.

(٤) ما اختبأ فى المستقبل من علم الغيب.

يصحبه فى سَرْحته تلك مجاهدٌ من أهل اللاذقيَّة اسمه النعمان بن عبيد الله . . .

❊❊❊

قال مسلمة للراهب :

- يا شيخ ، هل تجدون فى كتبكم ما أنتم فيه ونحن[1]؟

- نعم ، نجد ما مضى من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن !

- أفَمُسَمى أم موصوفًا[2] ؟

- كل ذلك موصوفٌ بغير اسم ، واسمٌ بغير صفة !

- فهل ترى من صفتى وصفة صاحبى هذا عندك ؟

- أميرٌ يعزف عن الإمارة[3] ، أو تعزف عنه الإمارة ؛ ينزع به عِرْق ، ويجذبه عرق[4] ؛ جرادةٌ صفراء ، تحت راية بيضاء ؛ يُفتَح به لغيره ولا يُفتح له ، عن يمينه على العرش أربعة ، وعن يساره أربعة ؛ يدنو حتى يكون قابَ قوسينَ ، فيقف بَيْنَ بَيْن ، ثم يُفلتها بعد الأيْن[5] ؛ بينه وبين ما يأملُهُ مئتان ومئتان

(١) هل تعرفون واقع أمرنا وأمركم الآن؟

(٢) يعنى : أهذه المعلومات مذكورة بأسمائها ، أم بصفاتها؟

(٣) يعزف عن الإمارة : يزهد فيها .

(٤) فيه دم عربى ودم أجنبى .

(٥) الأين : المشقة .

وثلاثمائة؛ ثم يكون ما أراد، حين لا مَتَاع له بشيء من ذلك الزاد، إلا عين جارية، وسيرة باقية؛ ويُذكر أبّو أيوب، ومحمد بن مُرّاد! . . . .[1]

- وهذا الخليفة الجالس على العرش؟

- اسمُ صبي[2] وما هو بصبي، ترمقه العيون، وتتوهّمه الظُّنون وهو مما يُراد به في حرز مَصُون؛ يُعلى البناء، ويُوسع الفناء، ويجزل العطاء، ويلد النُّجباء، ثم يمضي كما جاء؛ ويخلفه مَلِكٌ له اسمُ نبيّ، ووجهٌ وَضيّ، تفتح عليه بلادٌ لم يسلكها بدَويّ، ولم تطأها قدمُ عربيّ؛ يا سليمانَ بن داود، ارفع الغطاء عن المائدة للضِّيفان، إن للمأدُبَة موعدًا قد حان!

وصمت الراهب برهة وأطرق، ومال مسلمة على أذن رفيقه يُسِرُّ إليه؛ ثم رفع الراهبُ رأسه يقول:

- وصاحبٌ بالجَنْب يَنْشُدُ ضالّة، والضالّة تَنْشُدُ ناشدَها: والباب بين الناشد والمنشود عليه قُفل ورِتَاج، وستْرٌ من ديباج. . . أيُّها الصبيّ، أيتها الجارية، إن لكما وراء هذا

(١) آثرنا ألا نفسر كتابات هذا الحديث، لأن فيما يأتي من فصول القصة تفسيراً لكثير منها. وهذه الطريقة في الحديث هي طريقة المتحدثين عن الغيب في كل زمان، فهي تشير إلى معانٍ غامضة يفهمها كل سامع على الوجه الذي يريده.
(٢) هو «الوليد».

الباب عُمومةً وخُؤولة؛ اختلط الدم بالدم، وتَدَسَّس العِرْقُ إلى العرق[1]؛ ويلك لو انكشف المخبوء وانتهك الستر وأُزيح النِّقاب! لقد نذرت نَذرًا ونذرت المقاديرُ نذرًا، فأوْف بنذرك، أو تجاوَزْ عن ثأرك، فستبلغ المقادير غايَتَها برغمك، ويشهدُ الأميرُ ضاحكَ السنِّ عاقبةَ أمره وأمرك؛ فيحدب[2] على الوليد، ويترحَّم على الشهيد، ويَصِلُ رَحِمَ القريب والبعيد!

- وتَفَصَّد جبينُ الشيخ عَرَقًا[3] كأنما كان يَمْتَحُ على رأس بئر[4]، ثم تنفَّس نفَسًا عميقًا كأنما خَرَج من جُب، وراح يقلِّب عينيه بين الأمير وصاحبه صامتًا، والأميرُ وصاحُبه يتبادلان نظراتٍ لا تكاد تُفصح عن معنى!

***

وقال الأمر لصاحبه وقد أخذا طريقهما إلى المدينة:

- هل فهمتَ مما وصف الراهبُ شيئًا يا أبا عتبة؟

- قليلاً يا مولاى وغاب عنى الكثير!

- أفتدرى ما المئتان والمئتان والثلاثمائة!

(١) اختلط الدم بالدم والنسب بالنسب.

(٢) يحنو. (٣) تفصد: تقاطر عرقه.

(٤) يمتح: يرفع الماء بالدلو من البئر.

- أحسبه يعنى الذين يستشهدون منا قبل أن تدين القسطنطينيةُ بالفتح .

- أكذلك تزعم ؟

- وماذا تكون هذه السبعُمائة إلا ذلك !

- ظَننتُه يحصى الأيام، أو الأسابيع ؛ فإن كان ذلك فإن بيننا وبين الفتح عامين أو أربعة عشر عامًا . . .

- أو بضعة وخمسين[١]!

- وَى[٢]!

- بَلَى ، فما أراه-إن كان يحصى الأزمان-إلا حاسبًا حساب الأهلَّة[٣] ، لا الأسابيع ولا الأيام !

- ذلك كثيرٌ يا أبا عُتَيبة !

- ولكنَّه فى عُمر الدول قليلٌ يا مولاى !

- أخطأ حَدْسُك ؛ فإنى لأزعم أنْ سيكونُ ذلك فى عهد سليمان[٤] ؛ وتُفتح عليه بلادٌ لم يطأها عربى ؛ أفَتَرَى سليمان يُعَمَّر بضعة وخمسين ؟

(١) إن كان يعنى الشهور فهى بضع وخمسون سنة .

(٢) وى : عجبًا!

(٣) الأهلة : جمع هلال : يعنى أنه يحسب بالشهور .

(٤) سليمان بن عبد الملك ولى العهد .

- أفذلك قوله لابن داود: «ارفع الغطاء عن المائدة للضيِّفان» !

- ظننتُه كذلك !

- لقد كان لسليمانَ بن داودَ يا مولاى مُلْكٌ لا ينبغى -فى بنى إسرائيل- لأحد من بعده؛ فما أحرى أن يكون بُشرى لسليمان بن عبد الملكَ أن تُفتح عليه كنوزُ الدنيا !

- ويكونَ اللواءُ فى يدى يا أبا عتيبة !

- ويكونَ أبا عتيبة فى ظلٍّ لواءِ الأمير !

- ونبلغَ عرشَ قسطنطين الأكبر، ونطأ بساطه، ونَحْطم أصنامه؛ وأدفع إليك عشرةً من بطارقته تحتزُّ رءوسهم ثأرًا لأخيك !

- سيِّدى !

- ماذا يا نعمان ؟

- لقد تحدَّث الراهبُ عن الضَّالة وناشدها حديثًا لم أعِه !

- أفلم يقل إننى سأشهد عاقبةَ أمرِك ضاحكَ السن ؟

- بَلَى. . . .

- فماذا يعنيك من سائر هَذَيَانِه وخلْطه ؟

- أتراه يهذى ويخلط يا مولاى؟ فلماذا يَصْدُقُ فى الحديث عنك ويخلط فى الحديث عنِّى !

- أفظننتَ هؤلاء الرُّهبانَ يا نعمان يَصْدُقون فى كل ما يَحْكُمون ؟

- ولِمَ لا . . . . ؟

- فَهَبْهُم قد علموا من كُتبهم غَيْبَ المُلوك والأمراء؛ فمن أين لهم غَيْبُ سائر الناس ؟

- وماذا يَحْمِلُهُ على أن يكذب؟

- ذلك يا نعمانُ كلُّ ما بقى فى أيدى هؤلاء القساوسة فى الجاه فى هذه البلاد بعد أن أظلّها الإسلام؛ أفتحسبهم ينزلون طائعين عن هذا الجاه فيقولون لبعض العامة : لا ندرى !

- قد فهمت !

- بل ما تزال بعيدًا عن الفهم !

- ماذا ؟

- أريد أن أقول لك : إنى لم أُصَدِّقْ حَرفًا واحدًا من حديث ذلك الراهب الشيخ، وما قصدتُه مؤمنًا مصدقًا، وإنما أردتُ

أن ألتمس إلى التسلية سببًا وأنْشدَ راحةَ نَفْس ؛ فَدَعْ عنك حديثَه ذلك كلَّه كأن لم تستمع إليه ولم تجلس بين يديه !

- قد سَمِعْتُ !

ومضيا عائدين من الدير قد أطبقا شفاههما ؛ لا يتحدث أحدهما إلى صاحبه بعد ذلك الحديث ؛ ولكنَّ لكلٍّ منهما مع نفسه حديثًا ضافى الذيول !

☐☐☐

[٨]

بارقة أمل

لم تكن أمُّ النعمان تعرف أن ولدها اتخذ زوجًا، إلا يومَ عاد إليها بعد غيبة دامت سنين يصحبُه ذلك الطفلُ وأمُّه؛ أما الطفلُ فقد عرفتْه، إن فيه مَخَايلَ من أبيه وإن لم يزل رضيعًا في لفائفه، وإن اسمه عُتبة، أو عتيبة، وما أحبَّه اسمًا إلى قلبها! إنه ليذكِّرها بعمِّه عتبةَ بنِ عبيد الله الذى ذهب منذ سنين ولم يَعُدْ فلا تدرى أفى الأحياءَ هو أم فى الموتى؛ فليكن هذا الصبىُّ خَلَفًا من عمه الذى طواه الغيب فى ظلماته، وذكرى دائمةً لأبيه الذى قطعَه الغزوُ عن لذَاته ورماه فى البحر والفلوات لا يكاد يستقرُّ فى بلد أو يهدأ علَى ظهر سابحة!

لكن من تكون أمُّ هذا الغلام؟ من أىِّ بلاد العرب؟ وإلى أى بطونهم تنتمى؟ إنها لَنحيلةٌ ممشوقة. فى عينيها زُرقة، وفى خديها شُحوب ولحديثها نَبْرٌ عذب، وفى يدها إشارة لطيفة، ولها حظ من علم وأدب وظرف لم يحصِّل مثله كثير من بنات

العرب ؛ كلُّ ما تعرف أمُّ النعمان عن كَنَّتها[1] هذه الجديدة أن اسمها «سَبيكة» وأنها أمُّ ذلك الصبيِّ العزيز : عتيبة بن النعمان . . . .

أعربيَّة هي أم مولدة ، أم فتاةٌ جَلَبها ولدُها من السَّبَاء[2] أو من سوق الرقيق في بعض بلاد الشام؟ أزوجةٌ هي أم أمُّ وَلَد ؟ ليس يدري أحد ، ولكنهم جميعًا يعطفون عليها ويأنسون إلى حديثها ويسارعون إلى مَرْضَاتها ؛ لا يسألونها عما لا يعرفون من خبرها ، حفظًا لغيب صاحبها[3] ؛ ولا تحدِّثهم هي مبتدئةً عما يريدون أن يعرفوا ، حفظًا لغيب نفسها . . .

وتعاقبت الأعوامُ وسبيكةُ تعيش في ظلِّ الحنان والعطف من حَماتها وسلْفَتها[4] وأخوات زوجها وولد أخيه ، لا تكاد تحسُّ أنها غريبةٌ في هذا الجو الجديد عليها ولا يكَادون يُحسُّون

ولم ينسَ النعمانُ بن عبيد الله أن له زوجًا وولدًا ، فكان يُلِمُّ بالرقَّة حينًا بعد حين ، كلما وجد فُسحة من الوقت بين صائفتين ؛ فيقيم بين أهله أيامًا قليلة ثم يرحل . . . .

(١) الكنة : امرأة الابن .
(٢) السباء : الأسر .
(٣) احترامًا لسر زوجها .
(٤) السلفة : هي امرأة أخ الزوج .

وشبَّ عُتيبةُ بين فتيان الحى وفَتياته، قد آخى ابنَ عمه بشيراً و أختَه نوار؛ فكأنما جمعتهم أمومةٌ واحدة وأبوةٌ. وكذلك مضت الحياة بهذه الأسرة كما تمضى بكلِّ الأسر فى ذلك البلد، لم يُنكر أحدٌ من أمرها شيئًا ولم تُنكر من أمر نفسها؛ قد غاب رُجلُها فى الغزو والجهاد كما يغيب رجالٌ كُثْرٌ فى مثل تلك السنين عن زوجاتهم وأهليهم، واحتملت الأسرةُ غيبته راضية كما تحتمل أسرٌ كثيرة فى مثل تلك السنين غيبةَ رجالها راضية؛ بلى، كان فى الأسرة رجلان صغيران، هما عُتيبة بن النعمان وبشير بن عتبة، ولكنهما طفلان وإن بدا لهما -من مكانتهما فى الأسرة- أنهما رَجُلا الأسرة وعليهما لها مثل تَبعَاتِ الرجال!

وكانت الصوائف والشواتى ما تزال غادية رائحة بين الثغور فى البرِ والبحر؛ عليها من أصحاب مسلمة رجالٌ صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، لم يخرجوا فى هذه الرحلات المتابعة لاهين ولا هازلين، قد وطَّنوا أنفسهم على الظَّفر فى كل غارة يُغيرونها أو يستشهدوا؛ منهم النعمان بن عبيد الله الرَّقِّى، ومنهم أبو محمد الأنطاكى، ومنهم عبد الوهاب بن بخت؛ ثلاثة ما يزال صدى أسمائهم يتردد فى بلاد الروم مخيفًا مُفزعًا، يُرعب الصغير، ويُؤَرِّق الكبير، ويقضُّ مضاجع النُّوام؛ فإن الأمَّ فى ثغور الروم ليذنب صغيرُها أو يبكى فتُريد

تأديبَه فتقول له: اسكت أو أدفعك إلى الأنطاكى، أو ابن بخت، أو النعمان! فيكف الصغير عن بكائه ويستغفرُ من ذنبه!

وكانت صَيْحتُهم فى الحرب: لبيك أبا أيوب! فكأنما تُردِّدها وراءهم -حين يلفظونها- أواذىُّ البحر[1] وصخورُ الجبل، وتنداح[2] فى سهول البادية صدىً متصلَ الرنين يُفزِع ويُرهب ويقطع علائق القلوب!

وكانوا يحملون فى الحرب سيوفًا بلا أغماد، إذ كانوا لا يخرجون بها إلا محطَّمة من طول الضِّراب!

وجلس ثلاثتُهم ذات ليلة من ليالى العُطلة فى بعض مضارب الجند يَسْمُرون، كعادتهم كلما سكَن غبارُ الحرب، وأخذوا فى لون من ألوان المفاخرة بما أتوا من أعمال البطولة فى حرب الروم، فراح كلٌّ منهم يُحصى ما فى جسده من آثار الجراح، لا يكادون يستقصونها إحصاءً وعَدًّا؛ وبدا الأنطاكى أكثرَهم آثارَ جِراح، فقال ابن بخت مُعجبًا:

- لله ما أبليتَ يا أبا محمد فى سبيل الله! إنك لبطل!

قال النعمان:

(١) أمواج البحر.

(٢) تنداح: تعظم ويتسع صداها.

- إنه لأعلى منزلة مما تَصف يا أبا عبيدة؛ إنه لَبطّال[1]!

وضحك الثلاثة ضحكًا عريضًا ترددت أصداؤه في مضارب الجند. وصار اسمه من يومئذ: أبا محمد البطّال[2]، لا يكاد يعرفه أحد إلا به.

وقال أبو محمد ولم يزل يَشْرَقُ بضحكته:

- لقد أذكرتُمانى أمرًا حانت مناسبتُه، فقد كنت بأنطاكية ذات يوم من سنة(٧٠) وقد زحف الروم بجحافلهم يلتمسون غرّةَ عبد الملك، حين اشتغاله بحرب ابن الزبير وتوقّى مكايد عمرو بن سعيد ومُقاومة الخوارج؛ وبدا للروم كأنما دانت لَهم أنطاكيةُ وانفتح البَرّ، ولم يكن ثَمَّةَ جيشٌ للعرب يصدُّ غاراتهم، واستضعف المسلمون فأوى منه منْ أوَى إلى داره وفرَّ مَنْ فرَّ إلى خارج المدينة، ورأيتُنى ذلك اليومَ بغتةً بين كوكبة من جند الروم يسوقون في الحبال ثلاثة أسارى من العرب، وليس معى إلا سيفٌ مفلول قد تحطم من كثرة الضِّراب، وهتَفَ بى الأسارى في أغلالهم يطلبون النجدة:

(١) عظيم البطولة.

(٢) أبو محمد البطال: من أشهر أبطال ذلك العصر في حرب الروم؛ وله ذكر في التاريخ، وسيرة مستفيضة في بعض القصص الشعبى.

- إلينا يا أخا العرب !

وثارت حميَّتى، فحملتُ فردًا على الجماعة بسيفى المسلول، لم أحفل بما تنال سيوفهم من لحمى، وقصدتُ إلى الأسارى أريد أن أخلِّصهم من أيدى الروم، وتوالت علىَّ الضربات لا أكاد أحسُّ وقْعها على جسدى، وأوشكتُ أن أخلِّص الرجال، بعد أن جندلتُ فى طريقى إليهم بضعة نفر؛ وهتف أحد الأسارى بصاحبيه: أبشر عتبة! أبشر سعيد !

وهتف آخر منهم وهو يشير بيده إلى جانبى فزعًا: فديتك يا بَطَّال... احذر ! ونظرت إلى حيث كان يُشير؛ فإذا رومىٌّ فى زىِّ بطريق قد رفع سيفه على رأسى؛ فهممتُ أن أخلى للضربة القاصمة، ولكن سيفه نالنى...

ثم كشف أبو محمد عن كتفه فإذا ضربة غائرة فى حبل العاتق مما يلى العُنق... واستأنف أبو محمد:

- فذلك أولُ ما سمعتُ كلمة «البطَّال» !

كان النعمان يسمع ذاهلاً قد اختلجتْ شفتاه وحالَ لونه، فلم يكد يسكت أبو محمد البطالُ حتى ابتدره سائلاً فى لهفة:

- وماذا صُنع بالأسارى ؟

- لست أدرى؛ فقد أعجلتنى ضربةُ قُسطنطين عن تخليصهم، فنجوتُ من الموت ولم أكد !

- مَنْ قُسطنطين ؟

- ذلك البطريقُ الذى نالنى بتلك الضربة؛ لقد لقيتُه بعدها فى بعض الصوائف، وعرفتُه وعرفَنى، ولكنه أفلت من يدى . . .

- والأسارى ! . . . .

قال البطَّال مستخفاً :

- وما عنايتُك هذه بهؤلاء الأسارى وقد مضى زمان ؟ وكم بين العرب والروم من قتلى وأسارى !

- قد قُلتُ : إن عتبةَ كان أحدَ هؤلاء الثلاثة ؟

- ومَنْ عُتبة هذا ؟

- إنى لأظنُّه أخى !

- أخاك ؟

- نعم، فقد خرج للغزو منذ ذلك التاريخ فلم يعد؛ ولم تكن صوائفُ ولا شوات يومئذ؛ فقد كان عبد الملك فى شُغل عن الصوائف والشواتى بحربِ الخوارج !

صمت البطَّال برهةً وهو يحدِّق في وجه صاحبيه، ثم قال موافقًا:

- قد يكون إياه.....

وكان عبد الوهاب بن بخت صامتًا، يستمع إلى ما يدور من الحوار بين الرجلين في اهتمام؛ ثم عقَّب:

- بل إني لأرجو أن يكون إياه!

فالتفت إليه النعمان قائلاً وقد شاع في وجهه الأمل:

- عندك ما تقول يا أبا عبيدة!

- نعم، فقد كان أحد الثلاثة سعيد بن جُنادة، وقد خلَص بهم الروم إلى البحر، فاحتملوهم أسارى على ظهر سفينة روميَّة، ولكن ابن جُنادة التمس غِرَّةً من القوم فألقى بنفسه من السفينة بعدما أبعدتْ عن الساحلِ، فبلغ البرَّ سابحًا... وقد لقيتُه فحدَّثني....

- بماذا حدَّثك؟

- قال: إن أحد صاحبيه اسمه عتبةُ الرَّقيّ. أليس بَلَدُك الرَّقَّة؟

- بلى، وماذا قال غيرَ هذا؟

- لم يحدثني عنهما أكثر من ذاك؟

- وأين ابنُ جُنادة هذا ؟

- مات تحت أسوار مَلَطْيَة[1]! . . . . .

- مات؟ . . . .

- نعم، وإنى لأرجو أن يكون أخوك حياً فتلقاه ويحدّثك الخبر !

- ليت الأمانى تَصْدق يا أبا عبيدة !

وخلا النعمان إلى نفسه يفكّر فى أمره. . . . هل تَصْدق الأمانى ؟ وهل يرى أخاه حيّاً فيحدثّه ويستمع إليه ؟ ولكن أين . . . . ؟

وهرول عائدًا إلى أبى محمد البطّال يستزيده :

- لقد قلتَ يا أبا محمد : إن البطريق الذى نالك بسيفه، اسمه قسطنطين ؟

- نعم !

- وإنك لقيتَه بعدها فى بعض المغازى فعرفتَه وعرفَك؟

- نعم !

- أفلستَ تظنُّه يعرف ما آل إليه أمرُ هؤلاء الأسرى؟

(١) ثغر من ثغور الروم.

- أظنّ . . .

- فإنى أريدُ أن ألقاه !

- مَنْ ؟

- قُسطنطين البطريق !

- كلٌّ رومىٍّ قُسطنطينُ يا أبا عتيبة[1] ؛ فهل تظننى أذكُر كلَّ ما مر بى من الصور والحوادث على تعاقب السنين ؟

- أفلست تذكر أين لقيت قسطنطين هذا فى الغَزَاة الثانية ؟

- لستُ أذكر !

- ولكنه يعرفُ بعض أنباء أخى ؛ فأين ألقاه إذن ؟

- فى بعض المعارك ؟

- ماذا ؟

- أعنى لابدَّ أنك ستلقاه فى معركة قابلة ، فإنه رجلُ جِلادٍ فيما يبدو ؛ هذا إذ لم يكن قد مات !

- أتظنُّه مات ؟

- وماذا يمنع ؟ لقد كان يومَ أنطاكية شيخًا قد تجاوز الخمسين ، فإن لم يكن قد لقى أجله فى بعض المعارك فقد جاوز اليوم سنَّ الموت !

(١) يعنى أن اسم قسطنطين من الأسماء الكثيرة الشيوع بين الروم.

- واأسفاه !

- تأسفُ على موت عدوك وعدوِّ الله !

- بل آسَفُ على أخي وما غاب عني من خبره !

- إنك لتُسرف في الأمل يا أبا عتيبة إسرافًا يوشك أن يَفُلَّ عزمَك عند أول صدمة فيقطع بك؛ فهل استيقنتَ يقينًا لا شُبهة فيه أن ذاك أخوك، فكم في العرب من «عتبة»، وكم عربيٍّ اسمُه «الرَّقِّيُّ» ولم يدخل الرَّقَّةَ أو يَرَها بعينين؛ فمن أين لك اليقينُ بأن ذاك أخوك؟

- إلاَّ يكن أخي لأبي وأمي فإنه أخي في الدين والنسب !

- صدقت ! وإنه لأخي كذلك، وأخو كلِّ مسلم وعربي!

- فستحرص منذ اليوم على ما أحرص، فتلتمس له أسبابَ الحرية ؟

- نعم، ولكلِّ عربيٍّ في الأسر، وأطلبُ ثأر القتلى بكل رأسٍ رأسين !

- ودوَّى النفيرُ فهبَّ المسلمون إلى أسلحتهم، وهبَّ النعمان معهم إلى سلاحه وهو يلبِّي: لبيك عتبة ! لبّيك أبا أيوب ! الله أكبر !

[٩]

نداء الدم !

- يوشك حديثُ الراهب أن يكون حقاً !

كذلك قال النعمانُ لنفسه؛ ألم يقل ذلك الراهبُ: إن صاحبًا بالجَنْب يَنْشُد ضالّة، والضّالة تَنْشُدُ ناشدَها؟ . . . . فذانك هو وأخوه؛ ولكنه يريد أن يعرف أين تنتهي القصة ؟ وما ذلك الباب عليه القُفل والرِّتاج وستْرُ الديباج ؟ ومَن ذلك الصبيُّ وتلك الجارية ؟ وما تلك العمومةُ والخؤولة واختلاط الدم بالدم وتدسُّسُ العرْق إلى العرْق ؟

ليته يعود إلى ذلك الراهب فيسأله أن يوضّح له ما غمض من هذه الأحاجي[1]؛ إن الرهبان ليعرفون كثيراً من غيبِ الخاصّة وغيبِ العامة على السواء[2]؛ وما أنصف

(١) الأحاجي: الألغاز.

(٢) إشارة إلى جواب مسلمة له حين أراد أن يكفه من الاسترسال.

مسلمةُ حيث وَصَف ذلك الراهبَ بما وَصَف ورماه بالهَذَيان والخلْط ؟

وطوَّح الخيالُ بالنعمان إلى مرام بعيدة، وطوَّف حالمًا بين ما يعرف من ثغور الروم يتحسَّس آثار أخيه؛ ثم آب من رحلته تلك مكدودَ الذهن ضيِّق النفس خائر العزيمة. لقد كان قبل اليوم يُجاهد مستميتًا ليدرك ثأرًا أو يظفر بالشهادة، أما اليوم فإن له هدفًا آخر. . . ليس فى نفسه اليوم إلا صورة أخيه الذى يزعم أنه لم يزل حيّاً فى الأسر عند بعض بطارقة الروم، وليس له أمنيةٌ إلا أن يصل إليه فيستنقذه فيردّه إلى أمه وزوجه وولده !

والتفتُ خاطره إلى الذين يقيمون فى الرَّقَّة من أهله. إن له ثَمّةَ زوجًا وولدًا يعيشان بين أمِّه وزوج أخيه وولديه، لا يكاد يَطْرُقُهم زائرًا حتى يؤذنَهم بالفراق(١)؛ وقد مضى عامان منذ آخر زياراته لهم فلم يرهم ولم يروه منذ ذلك الحين. كيف صار ولدُه عُتيبة اليوم؟ وما شأنه وشأنُ ابن عمه بشير بن عتبة، وأخته نوار بنت عتبة، تلك الدُّمْية الصغيرة الضاحكة أبدًا كأنما يُصْبحُها أبوها ويُمسيها بالمُزاح والدُّعابة والطَّرائف المجلوبة؛ وأبوها أسيرٌ فى حصن من حصون الروم لم تره قَطُّ ولم يرها. . .

(١) يعنى أن زيارته لهم قصيرة.

وعاد يذكر أخاه عتبة . . . وتخيَّل كأنما لقيه بعد أيْن، فاعتنقا، وتذكرا الماضى طويلاً، واصطحبا على الطريق إلى الرَّقَّة حيث يقيم بشير ونوار وعتيبة وجدتُهم العجوزُ وامرأتان أخريان قد فارقهما زوجاهما منذ بعيد فلا هما زوجتان ولا أرملتان ! . . . .

ويرى عتبةُ بن عبيد الله ابنته نوار، عروسًا فاتنة ضاحكة السن أبدًا، فيسأل : من هذه؟ فيضمُّها عتيبةُ بن النعمان إليه ويقول : هذه لى !

وتضحك امرأتان ورجلان وتمتلىء قلوبهم غبطة ومسرَّة، ويحقِّقُ عُتبةُ لابن أخيه ما أراد، فيزوجه نوار، ويعودُ الأنس إلى تلك الدار الموحشة[1] !

ثم يستيقظ النعمان من حلمه ذلك، فإذا هو فى خيمته مُنبطحٌ على فراشه وإلى جانبه سيفُه وترْسُه؛ ويفىءُ إلى الحقيقة[2] بعد مشوار طويل فى وادى الأحلام، ويهمُّ أن ينهض فتُجاذبه الأرض. إن الأمانىَّ مَكْسَلَةٌ مَجْبَنَة[3]. ولكنه لابدَّ أن ينهض، فإن الجند فى الميدان لا يؤذَنُ لهم فى أن

(١) من الواضح أن كل ذلك تخيل .
(٢) يرجع إلى الحقيقة .
(٣) بعض الأمانى تدعو إلى الكسل والجبن .

ينبطحوا على الأرض طويلاً وينسرحوا فى الأحلام من وادٍ إلى وادٍ . . .

❋❋❋

كانت الدولة حتى ذلك اليوم عربيّةً خالصة، وكانت عصبيةُ الأبوّة والأمومة وخلوصُ العرقِ من هُجْنَة الدم، هى السياسةَ ومدارَ التدبير فى الدولة، فليس للموالى ولا لأبناء الجوارى جاهٌ فى الحكم ولا مطمعٌ فى الرياسة ولا اعتبارٌ عند الأمراء ولا عند السُّوقة[1]، وكان الخلفاء مع ذلك يؤثرون الروميات والصَّقْلَبيّات[2] وبنات الترك والعجم والمجلوياتِ السودَ أحيانًا، على الحرائر من بنات العمّ والخال، فيتخذوهن للفراش والخدْمة وسياسة القصور ومجالس الأنس والمَسَرَّة، وَلَكنهن إنْ يَلِدْنَ فليس أولادهن فى اعتبار آبائهم إلا أبناءَ جَوارٍ، وإن كانوا فى الذّروة من الفضائل والحكمة وسياسة الأمورِ والشجاعة فى الحرب؛ وكان أبناءُ العامة والخاصة من جواريهم فى هذه المنزلة كذلك عند آبائهم وإخوتهم وأهليهم، فليس لهم عند أحد منزلةُ ابنِ العربيةِ الحرَّة. . . .

---

(١) كانت هذه سياسة بنى أمية.

(٢) الصقليبات: بنات الصقالبة: البلغار ومن جاورهم.

من أجل ذلك أبعد مسلمةُ عن عرش بني مروان، وهو من إخوته-كما قال أبوه-: «حكيمهم الذى عن رأيه يَصْدُرون، وبابهم الذى منه يعبرون، ومِجنهم الذى به يستجنُّون!....».

ومن أجل ذلك أيضًا كَتَم النعمانُ بن عبيد الله عن أمِّه وأهله أمرَ امرأته سبيكة، فلم يحدِّثهم أنها أم ولد، كانت نصيبَه من الفيء فى بعض الغزوات فحازها فى داره حتى نَضِجَتْ نَضْجَ الأنثى وأحكمت العربيةَ لسانًا وتشرَّبت الإسلامَ دينًا، فاتخذها أمَّ ولد، ثم تَرَقَّى بها درجةً فجعلها زَوْجًا، ثم حَمَلَها إلى أهله لا يدرون من أمرها إلا أنها أمُّ عتيبة بن النعمان!

لقد خشى النعمانُ أن يُهجِّن أولادُ عمومته ولدَه عُتيبةَ حين يعرفون أنه لأمِّ ولد روميَّة(١)؛ فكذب تلك الكَذْبة الصامته ولم يتحدث إلى أهله بشيء من خبرها؛ وبعض الكذب لا تَلْفظُه شفتَان!(٢).

ولكن هذا النحولَ فى القدّ، وتلك الزرقة فى العينين، وذاك الشحوبَ فى الخد، وذلك النَّبْرَ فى الحديث-كل أولئك

(١) أن ينزل عندهم قدره لأنه هجين. انظر التمهيد.

(٢) الكذب الصامت: أن تسكت عن الحق فلا تقوله.

ينمُّ نميمةً فاضحة عن أرُومة تلك الصبية[1]؛ فتتهامس حولها بعضُ الشفاه وتنقبضُ عنها بعض النفوس !

ويفد النعمانُ إلى الرَّقة زائرًا ذات مرة-كبعض عادته-بعد غيبة طويلة، فتلقاه زوجُه طيبةَ النفس راضيةً قد افترَّ ثغرُها عن ابتسامة تعبِّر عن مدى شوقها إليه وسرورها بمَقْدَمه، ولكنه يرى وجنتيها قد ازدادتا شحوبًا، وعينيها قد بَدَتَا أكثرَ زُرقة وعُمقًا؛ ويرى على تَيْنك الشفتين الرقيقتين كلمات تختلج يجاذبها الحياء منه والحَفَاظُ على مودَّته أن تلفظها، ويسألها النعمان عما بها فلا تجيب، ولكنها ما تكاد تسمع صوته الحانى حتى تستحيلَ تلك الاختلاجةُ دموعًا على الوجنتين الشاحبتين!

ويدنو منها النعمان فيمسح على شعرها بيده ويعيد سؤاله متلطِّفًا، فتجيبه: -ليس يخفى علىَّ يا نعمان-ولا يطيب لى أن أنكر-أننى جاريتُك !

- بل زوجتى وأمُّ ولدى يا سبيكة !

- نعم، أمُّ ولدك التى أكرمتها بنسبك فسميتَها زوجًا !

- بل أنت أكرمْتنى يا سبيكةُ بَدياً بما أسبغتِ علىَّ من حنانك

(١) الأرومة: الأصل.

وعطفك، ثم أكرمْتنى ثانية حين ولدت لى عُتيبة هذا الذى أرجو أن يكون قُرَّةَ عين لى ولك، ومَا زالت تُكرمينني بما تحفظين من غَيْبى وتحدبين على أهلى وتَرْعين ولدى راضيةً صابرة على مُرِّ الفراق وشَظَفِ العيش !

- ولكنَّ أمَّك لا ترضى يا نعمان !

- أمِّى ؟

- وزوج أخيك أيضًا، وولدُك عتيبة !

- ماذا؟ . . . قد علمتُ من علم الناس أن الحماة والسِّلفة لا ترضيان أبدًا عن الكنَّة. . . ولكنْ ما شأنُ ولدنا عُتيبة ؟

- إنه مثلُهما يُنكر على أمِّه أنها ليست عربية !

- ومَنْ أنبأه ؟

- لم يُنبئه أحد !

- فماذا قال إذن ؟

- جاءنى ذات يوم يسألنى : إلى أيِّ عربِ اللاذقيةِ تنتسبين يا أمّ ؟

- فكيف كان جوابك ؟

- قلت له : إن أباك يعرف. ولم أزد؛ فقد خنقتْنى العَبْرةُ ففرت من بين يديه إلى خَلْوَتى !

- أفهذا ما تقولين إنه يُنكره عليك ؟

- نعم !

- لقد أسأتِ الفهمَ يا سبيكة !

- بل قُل : يا سَبِيَّة !

- أوَّه !

- لست أريد مساءتَك يا نعمان !

- ولم يُرِدْ عتيبةُ مساءتَك !

- ففيم كان سؤالهُ ذاك عن نسبى ؟

- تلك عادةٌ عربية : أن يفخر الأبناء بما يُمتُّون مِن نَسَبِ الآباء والأمَّهات !

- وكيف كنتَ ترانى أجيب ؟

- قال النعمان ضاحكًا وقد مال عليها حتى خالطتها أنفاسهُ :

- قولى له : إنك فى أعلى بيت من بنى الأصفر[1] !

ونفرتْ سبيكةُ مبتعدةً وعضَّت على شفتها ، ثم أرسلت عينيها ، وقالت وقد سترت وجهَها بكفَّيها وبدنُها يختلج كلُّه :

(١) بنو الأصفر : الروم ، وهكذا كان العرب يسمونهم .

- وكذلك أنتَ يا نعمان ما تزال تقولها !

قال وقد زحف إليها حتى لاصقَها ثانية :

- فماذا كنت تريدين أن أقول إذن ؟

- لا شيء !

- ولكنَّ كلَّ مسئول لابُدَّ أن يجيب !

قالت وقد شرعت عينيها وبرق فيهما بريق عجيب :

- قل إنك ولدتَنى ولادةً ثانيةً ثم اتخذتَنى زوجًا !

- وإذن فأنا أبوك وزوجُك ؟

- نعم !

- ولكنك أنتِ ولدتنى كذلك ثم ولدتِ لى !

- إذن فأنا أمُّكَ وزوجُك ؟

- نعم !

- وأمُّك ؟

- إن لكل رجل أمَّين و أبوَين !

- ولكل امرأة ! . . . .

- فمن أمُّكِ الثانيةُ إذن ؟

- أمُّك !

- ولكنك تكرهينها يا سبيكةُ فيما أرى !

- بل هى تكرهنى !

- وهل تكرهُ الأمُّ ابنتها ؟

- نعم، حين تكون كنَّةً لها فتغلبها على أمومة ولدِها !

- فهل أيقنتِ إذن أنكِ قد غلبتها على أمومتى ! . . . .

- أيقنْت !

قال وقد مدّ يدًا يُعابثها :

- فإن طفلَك الكبيرَ. . . . . جائعٌ يا أم !

فابتعدت عنه مُعجَلة وهى تقول :

- صَهْ، فإن عُتيبة قادم !

وسُمع وقع أقدامـه فى الفناء، ثم دخل، فألقى بنفسه بين ذراعَى أبيه ! . . .

لم يَعُدْ عُتيبة صبياً، فقد شبَّ واخضرَّ شاربُه، وكان قوياً عريضَ الألواح مفتولَ الساعد خَشِنَ الكَفِّ، ولكنَّ فى خديه شحوبًا، وفى عينيه زُرقةٌ وعمق، ولصوته نَبْرٌ عَذْبٌ؛ من يراه ويرى هذين الرجلَ والمرأة لا يشكُّ للنظرة الأولى أنهما زوجان

قد أنجبا؛ فإن فيه من كليهمَا وليس لأحدهما من صاحبه شيء . . .

ورأى عُتيبة فرصةً سانحةً ليتحدث إلى أبيه فى أمر يَشغله منذ بعيد؛ ثم استحيا . . . فآثر السكوتَ حتى يُرَوِّى فى الأمر فيعرفَ مِن أين يبدأ . . .

ولكن الرجل الكهل لم يكن من الغفلة بحيث يغيبُ عنه معنى تلك اللّمحات الغامضة والإشارات المكبوتة التى بَدَتْ من ولده حين أخذا فى الحديث عن بعض ما كان هنا وهنالك فى أثناء تلك الغيبة الطويلة . . .

– إن عُتيبة قد بلغ مبلغَ الرجال يا سبيكة !

– نعم !

– ويرى من حقِّه أن يؤوى إليه زوجه !

– نعم !

– وتغلبك على أمومته أمٌّ أخرى . . .

– تخفُّ تَبِعاتى إذن !

– أتؤمنين بما تقولين يا سبيكة ؟

– كلَّ الإيمان !

- وإذا لم يَجِدْ عندها ما يلتمس كلُّ رجل فى امرأته من حنان الأمومة وعطفِ الزوجة وإيثارِ الحب ؟ . . .

- لن يفتقد عُتبة عند زوجه شيئًا من ذلك !

- تعرفينها إذن ؟

- نعم !

- حَدَّثك بخبرها ؟

- حدثتنى عيناه دون لسانه !

- أهى نَوَارُ بنتُ عمِّه ؟

- مَنْ حدَّثك ؟

- حدثتنى عيناه كذلك .

- وبماذا أجبتَه ؟

- غضضتُ طرفى واصطنعتُ الغفلة !

- ولِمَهْ ؟

- أردتُ أن أستنبئَ عينيها قبل أن آخذ فى الحديث معه !

- ولكن عينيها لا تتحدثان إلى أحدٍ بشىء !

- فكيف عرفتِ إذن أنها تُحبُّه ؟

- إن عيونَ النساء أقْدَرُ على الغوص فى أعماق النفوس والكشف عن خَبيثاتها !

- وغاصت عيناك فى أعماقها وكَشَفتا عن خبيثتها ؟

- ورأيتُ صورتَه فى أعمق الأغوار من قلبها، ولكنَّ إطاراً أسودَ يُمسكها ويُلقى عليها ظلاً كَريهًا ؟

- لستُ أفهم ما تَعْنين يا سبيكة !

- إن أمَّها لا تُريد أن يكون زوجها فتى هَجينًا يتدسَّسُ إليه عِرْقٌ من الروم الذين أيْتَمُوها جنينًا وأيَّموا أمَّها شابَّةً(١)!

- ومن أنبأها أن عتيبة يَمُتُّ إلى الروم ؟

- لم يُنبئها أحد !

- فكيف عرفتِ إذن ؟

- ذاك يومَ جاء يسألنى عن نسبى !

- قد وَهِمْتِ يا سبيكة !

- وشىءٌ آخر . . .

- ماذا ؟

(١) كانوا سببًا ليتمها وهى لم تزل جنينًا فى بطن أمها، كما كانوا سببًا لأن تفقد أمها زوجها فترمل وهى شابة.

- كلمةٌ لا أقولها . . . .

- بل قُوليها . . .

- لقد حدثتني أمُّها ذات يوم أنها لن تُزوَّج فتاتها إلا فتى يمْهَرُها تاجَ بطريقٍ رُومى !

- ما أرْخَصَهُ مَهْرًا !

- يقتُله ويحملُ إليها تاجَه !

- فهمْت !

- ويسوقُ إليها مع هذا المهر جاريةً من بناتِ البَطارقة !

- وفيمَ هذا الغُلُوّ ؟

- تُريدأن تثأر لأبيها !

- ولكنَّ أباها لم يَمُتْ !

- ماذا قلت ؟

لم يكن النعمان يريد أن يُفضى إلى أحد بذلك السرّ ؛ فإنه لم يَطِبْ له عيشٌ منذ حَمَلَه ؛ وليس يريدُ أن يشقَّ على أحبَّائه بتحميلهم من ذلك ما لا يحتمل هو ؛ ثم إن أمر أخيه لم يزل حدْسًا لا يعرف آخرته ، إلى لقاء سعيد أم إلى خيبة أشدَّ مرارة من ذلك الحاضر المُرّ ؛ فلم تكد تجرى على لسانه تلك العبارة وتتبعها امرأتُه بالسؤال حتى فاء إلى نفسه

واستدرك :

– أعنى أن أباها لا يُعرف أين ذهب ؛ فمن أين لها أن الروم قتلته؟

– كذلك تَزْعُم !

– ولكن هذا الزعم لن يحول بين قلبين تَعَارَفَا فائتلفا فاضمر كلٌّ منهما لصاحبِه مثلَ ما يُضمر لنفسه!

– وذلك المَهْر ؟

– دعى ذلك إلى إبَّانه[1]!

❊❊❊

لم يودع النعمانُ زوجته وولده فى هذه المرة قلقًا حيران قد توزَّعَتْهُ التَّبِعات ؛ فقد خلَّف على أهله فى هذه المرة رجُلين يقومان بأمرهم ؛ هما عُتيبة ابنهُ، وبشيرُ ابن أخيه ؛ وقد كشف لزوجه عن ذات صدره فى أمور لم يكشف لها عن مثلها من قبل ؛ وتحدث إلى أمِّه وامرأة أخيه وولديها أحاديثَ ذاتَ بال فى شئون شتى ؛ لم يصرِّح بكلٍّ ما فى نفسه، ولكنه مَهَّدَ تمهيداً لبعض الأمر ووضَع فى الأرض الطيبة بذرةً يرجو لها

(١) آوانه.

النماء . . . ثم وثب إلى ظهر فرسه ومضى . . .

وكان فتى وفتاة يتبعانه بأعين دامعة وقلباهما يَجفان ، ثم لم يكد يغيب الراكب المغدُّ حتى التَقت أعينهما فى نَظرة طويلة ، ثم أنْغَضت الفتاة رأسَها وأنغض الفتى[1] ، واتخذا طريقهما صامتين إلى الدار !

□□□

(١) أنغض : طأطأ رأسه .

[١٠]

قبر على الطريق !

لم تزل الغنائم والأسلاب والأسارى تتدفق على الثغور الإسلامية إثر كل صائفة وشاتية، قد ازدحمتْ بها الأسواق وقلَّت فيها الرغبة، حتى ليباعُ مُطْرَفُ الخزِّ بدارهم، وتُشرى السَّبية من بنات الأمراء والسادة بدينار؛ على أن أعظم ما أفاء الله على المسلمين فى تلك السنين من غنائم الحرب، ما عاد به موسى بن نصير قائدُ جيش المغرب من غنائم الأندلس.

هذا موكبه يدخل دمشق فى سنة (٩٤) فيُذهل الوالدةَ عن ولدها ويُلهى الصبيَّ عن طعامه وشرابه:

ذلك أمير الركب موسى بن نصير فى وَشْيه وديباجه؛ يتبعه ثلاثون غلامًا من أولاد ملوك الإسبان على رءوسهم التيجانُ ويلبسون الثياب مطرَّزة بخيوط الذهب مرقَّشة بفُصوص الجوهر، يسعى بين أيديهم المئات من غلمانهم وخدمهم

وحشمهم كأنهم فى موكبهم الملوكى بطُلَيْطُلة[1] ؛ يتبع أولئك عجلاتٌ تجرُّها الدوابُّ ولا تكاد ، قد رُصَّ عليها ما لا يُحصَى من أحمال الذهب والفضة والجوهر والياقوت والطنافس المنسوجة بقضبان الذهب المنظومة باللؤلؤ الغالى والجوهر المثمَّن ؛ يتبع ذلك عجلاتٌ أخرى قد تَفَسَّخَتْ من ثقل ما تحمل ، عليها مائدةُ سليمان بن داود[2] قد نُقلت من حيث كانت فى طُليطلة إلى عاصمة الدولة فى دمشق ، وكانت من خالص الذهب والفضة ، وعليها ثلاثةُ أطواق من لؤلؤ وياقوت وزُمرّد ؛ يتبع كلَّ أولئك موكبُ الأسارى وعدَّتهم أربعون ألفًا من أبناء الإسبان .

ذلك كله هو بعضُ الخُمْس[3] مما اغتنم موسى بن نصير فى حرب الأندلس ؛ فكم جملة ما حصَّل من السبايا والأسارى والمغانم !

***

قال مسلمة للنعمان بن عبيد الله :

(١) طليطلة : مدينة بالأندلس ، كانت من عواصمهم .

(٢) يروى بعض أهل التاريخ أن مائدة النبى سليمان كانت فى طليطلة ، فلما فتحها العرب ملكوا هذه المائدة .

(٣) فى شريعة الحرب أن خمس الغنائم لبيت المال .

- أتَذْكُرُ ما قال ذلك الراهبُ يا أبا عتيبة؟ فقد رَفَع سليمانُ الغطاءَ عن المائدة للضيفان؛ أفلا تظن أنَّ موعدَ المأدبة قد حان[1] ؟

قال النعمان:

- صدق الراهب وبَرَّ . . .

- بل كَذَب وفَجَر، وإن وافَقَه القَدَر !

وصمت مسلمة برهة ثم أردف:

- وسأخرج إلى الحجاز فى عامى هذا فأؤدِّى الفريضة، ثم أرجع فأعدُّ للغزو عُدَّته؛ لا أنتظر سبعَمائة ولا سبعين ولا سبعة[2] . ليس موسى بن نصير ومولاه طارقٌ بأوسعَ ذَرْعًا من مسلمة؛ فسنفتح القسطنطينة وننفذ منها إلى الأرض الكبيرة قبل أن يجاوز موسى بنُ نصير جبلَ الزهرة إلى أرض إفرنسة؛ وتشهد دمشقُ موكبًا آخر قريبًا يُنسى أهلَ الشام موكب ابن نصير ويُلهيهم عن مائدة سليمان بن داود !

***

كان عهد الوليد بن عبد الملك خليقًا بأن يطول، فقد ولى

(١) انظر حديث الراهب.

(٢) انظر حديث الراهب.

الخلافةَ ولم يزل فى باكر الشباب، وقد عُمِّرَه أبوه عبدُ الملك وجدُّه مروان حتى جاوزا الستين؛ ولكن بنى عبد الملك كثير، وكأنَّ كلاًّ منهم قد استقرَّ فى وَعْيه الباطن أنَّ من حقِّه أن يجلس قدرًا من عمره على عرش عبد الملك، فلولا بقيةٌ من الحفاظ على العهد-أو لعلها خشية افتراق الكلمة-لوثب بعضُهم على بعض يستبقون عرشَ الخلافة؛ فكأنما اقتضتْ حكمةُ الله ألا يُعَمَّر الوليدُ طويلاً من أجل ذلك!

على أن الوليد كان على نية الغَدْر، فلولا أن الأجَل أعجله عن مَأمَله لجعلها وراثةً لولده دون أخيه ولىِّ عهده سليمان، وكان يؤازره على هذه النية طائفةٌ من أمرائه وبطانته وقادة جُنده، فلما بَغَتَهُ الموتُ ووليها من بعده سليمانُ بن عبد الملك، كانت أشياء تحيك فى صدره من بطانة الخليفة الراحل... وكانت أشياء تَحيكُ فى صدورهم كذَلك؛ ولكن مسلمة بن عبد الملك-كما قال أبوه-كان مِجَنَّ هذه الدولة، فردَّ سيوفًا-كانت مُشْرَعة-إلى أغمادها، وبَصَقَ على الفتنة فانطفأت!

***

وتهيأ مسلمة للحج، ففرَّق أصحابه على الثغور، وعقد الألوية لأمراء الصائفة، ووزَّع الأعطيات فى الجند؛ ثم سار

فى موكب فخم ضخم على ظهر البادية إلى الحجاز، يصحبه النعمانُ بن عبيد الله. . . .

ونزلوا ذاتَ يوم للقيلولة فى بعض مراحل الطريق، ثم نهضوا يستأنفون الرحلة، وكان بالنعمان فى ذلك اليوم وَجَعٌ يَثْقُلُ به فلا يكاد ينهض، ولكنه لم يَطِبْ نفسًا بالتخلُّف، فتحامل على نفسه حتى يركب، وأسلم زمامَ ناقته إلى الحادى[1]، ثم أخذتْه إغفاءةٌ[2]، فمال برأسه على قَتَب الراحِلة، وسبحت به الأحلام فى بحر بعيد الشاطئ، فانكشفتْ له صُوَرٌ من الحياة لم يرها من قبل ولم تخطر له فى وهم ولا فى أمنيَّة ! . . . .

ثم نَشطَ من إغفاءته هذه معافًى خفيفَ الحركة، ولكن رأسَه مما ازدحم فيه من الأوهام والصُّور لا يكاد يثبتُ بين كتفيه . . .

واستمر الركب فى سُراه على ظهر البادية، والحُداةُ يوقِّعون أغانيهم فى هدوء الليل فَتُرَجِّع الصخورُ صَدَاها عذبًا صافى الرنين كأن موسيقى تعزف وراء تلك التلال التى تكتنف طريقَ الوادى . . .

---

(١) الحادى: قائد الركب.

(٢) نعسة.

وامتلأت نفسُ النعمان شعرًا بليغًا، ولكن شفتيه لم تلفظا بيتًا ولم يتحرك لسانُه بقافية، واستحالت العواطف الشاعرة دموعًا في أجفانه وتأجَّجت نارًا في رأسه؛ وكأن نسيم الليل بارد بليلا، فحبس في عينيه تلك الدموع ولكنه لم يُطفئ الوجدَ الملتهب في صدره والنارَ المشتعلة في رأسه؛ وبَسَطَ صدرَه ورفع أنفه يعب الهواء عبًا ولكنه لم يَرْوَ من ظمأ أو يتبرد من غُلَّة؛ فاستحثَّ راحلته حتى تقدمت فحاذت راحلةَ أميرَ الركب مسلمة بن عبد الملك فهمَّ أن يتحدث إليه حديثًا ثم أمسك . . .

والتفت مسلمة إلى حيث كان النعمان، فرآه فعرفه فبدأه محييًا:

- طابت رحلتُك يا أبا عُتيبة !

- طابت لك الرحلةُ والإقامةُ يا مولاى !

وكان مسلمة قريبَ الإفاقة من إغفاءة حالمة مثلِ إغفاءة صاحبه، قد رأى فيها رؤيا وانكشفت لهَ صورٌ من ماضيه وحاضره وصورٌ أخرى لم يَرَها من قبل؛ وكان النعمان يصحبه فى كل مراحل تلك الرؤيا؛ فلم يكد يُفيق من إغفاءته ويرى النعمان إلى جانب راحلتِه حتى أخذه العجب، فقال وفى صوته نبرٌ غريب:

- لأمرٍ مَا رأيتُك إلى جانبى الساعةَ يا أبا عتيبة !

- لقد رأيتُ رؤيا يا مولاى فرغبْتُ . .

- رؤيا ؟ . . .

- نعم، وكان الأمير معى . .

- مَعَك !

- أعنى أننى كنتُ معه . . .

- نعم، نعم !

- ورأيتُك تضم إليك شاباً فيه ملامحُ من أبيه فتتملاَّه طويلاً ثم تفيض عيناك بالدموع، ولم أكن معكما بعد ذلك ولكنى رأيت كلَّ ما كان وعرفت . . .

قال مسلمةُ كالذاهل :

- نعم، نعم؛ ولكن كيف حدث هذا؟ . . . .

- قد رأيت . . .

- عرفت، ولكنْ كيف اقتحمتَ علىَّ غفوتى فرأيت ما رأيتُه ؟ . . .

- وَىْ! . . . هل رأى مولاى مثل هذه الرؤيا ؟ . . .

فاء مسلمة إلى نفسه ولم يكد، فقال مستدركًا :

- ثم ماذا يا نعمان، فإن حديثَك لعجيب !

- حسبتُ مولاى قال: إنه رأى مثلَ رؤياى !

- بل عجبتُ أن تكون معى وأكون معك فى اليَقَظَة والمنام....

إن بيننا نسبًا يا أبا عُتيبة !...

- وكذلك تراءى لى...

وهمَّ لسانُ مسلمة أن يسبقه ثانية إلى ما لا يريد أن يقول، فأمسك وترك النعمان يقصُّ رؤياه، لا يزيد على أن يقول له بين له مرة بعد مرة:

- هيه يا أبا عتيبة !...

ومضى النعمان فى قَصَصِه:

- ورأيتُ ولدى عتيبةَ على رأسى وقد اخضلَّت عيناه بالدمع، وكانت أمُّه سبيكةُ وراء ظهرِه، وكان على وجهها سترٌ رقيق تجول عيناها من وراءه؛ وكانَ مجلسُك يا مولاى إلى يمين فراشى، ورأيتُ عينى سبيكة تستقرَّان على وجهك، ورأيتُ عينيك تستقرَّان على وجهها؛ فثار دمى غَيْرَةً وحَنَقًا- ومعذرة إليك يا مولاى-وهممتُ أن أنهض، ولكن جسدى كان قد ناله يُبسُ الموت؛ وهمَّ لسانى أن ينطق، ولكنه لَصِق

بفكِّي ؛ كأنما كنتُ أرى بغير عينين ، فقد كانت أجفاني مُثقلة قد أطبقت واشتبكت أهدابها ، ولكن المنظرَ مع ذلك لم يُزايلني : كانت عيناك مستقرتين على وجهها ، وعلى شفتيك كلمات أراها و لا أسمعُها ، وبعضُ الكلام يُرَى ولا يُسْمَع ؛ ثم مِلْت عليَّ فقبلت جبيني وانحَدرتْ على خدَّيك دمعتان ، وسمعتك تقول : هوِّن عليك يا أبا عتيبة ، إن بيننا نسبًا و صهرًا . . .

وكانت دمعتان تنحدران في تلك اللحظة على خدى مسلمة ، وقد مال على النعمان كأنما يَهُمُّ أن يقبِّله ، لولا بعْدُ ما بين الراحلتين ؛ ثم قال وصوته يختلج :

- هيه يا أبا عتيبة !

- وخففتُ من ثقَل ، وحلَّقتُ بعيدًا ، وغاب عنى منظرُ السماء و الأرض ، ثَم فئت إليك ، ورأيتُك هذه المرة في خيمة من ديباج قد أقيمت في واد أفْيَحَ قد انبسط الزرعُ فيه على مدًّ البصر وانتثرت فيه بيوتٌ منَ خشب تسرح حوليها قُطعانٌ من الجاموس والغَنَم ؛ وكأنما سمعتُ الأذان والتكبير في هذه البيوت المنتشرة بين المراعى الخصبة ، فعلمت أنني في أرض عربية وأنك صاحبُها ؛ فإن صَدَقَتْ رؤياى يا مولاى فتلكَ بضعةٌ من أرض الروم مما يلى القسطنطينية حيث ينتهى خليجُ أبى أيوب ؛ لقد نزلتُ هذه الأرضَ ذات مرة في بعض

الصوائف ضيفًا على أبى أيوب، فأطعمنى من ثمراتها وسقانى وأظلّ مَقيلى !

كان مسلمة مُنصتًا لحديث صاحبه وهو مسترسلٌ فيما يقص من رؤياه :

- ورأيتُك فى خيمتك هذه التى وَصفْت، وقد سيق إليك أسارى من الروم فأمرتَ بأن تُضرب أعناقُهم، ومثلتْ سبيكة لعينىّ فى تلك اللحظة تحول بينك وبين ما تريد من سفْك دمائهم، فَنَوَّلْتها العفوَ عنهم ونوَّلْتَهُم العافية! . . . .

وكان بدن مسلمة يختلج وهو يقول ولا يكاد صوتُه يبلغ أذنيه :

- هيه يا أبا عتيبة !

- ثم رأيتُك فى الرَّقَّة؛ وكان ثَمَّةَ أخى عُتبة قد جلس بين ولديه بشير ونوار، ورأيتك تُدنى عتيبةَ ولدى منك فتضمُّه إليك وعلى شفتيك كلمات لا أسمعها، وتُفيض برّك على أخى وولدى وأهلى جميعًا، لا تستثنى منهم أحدًا، ثم تمضى وعلى شفتيك كلماتٌ لا أسمعها كذلك. . . .

- ثم ماذا يا عتيبة ؟

- ثم أرانى وإياك على راحلتين فى أرض البلقاء، نقصد ذلك الدير الذى لقينا فيه ذلك الراهب ذات يوم فحدّثنا؛ ولكننا نجد الراهب قد مات، فنرجع محزونين وأنت تقول: قد انقطع الوحىُ منذ محمدﷺ، وما صَدَقَ الراهبُ ولا برّ، بل كَذَب وفَجَرَ، وإن وافَقَه القَدَر؛ ولولا عُلالةُ نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرّ فى غدها من غيب الله، ما غَبَّرْتُ قدمىَّ فى هذه البادية ألتمس إلى التسلية سببًا وأَنْشُدُ راحةَ نَفْس!

- ثم ماذا يا أبا عتيبة؟

- ثم أفقت من إغفاءتى فإذا أنا على هذا الطريق فى ركب الحاجّ إلى مكة، قد شرّفنى بصحبته وبَسَطَ لى معروفه وبِرّه!

- ذاك حقُّك علينا يا أبا عتيبة؛ ولكنْ ما شأنُ ولدِك عتيبةَ هذا؟ وما خبرُه، ؟ فقد شوّقْتَنَا إليه يا صاح!

- فتًى يخطو إلى الشباب، قد خَلَفَ أباه على أهله، وحَفظَ عنه الولاءَ لأميره؛ فهو غلامُك يا مولاى وإن لم يكن له حَظُّ الرؤية وشرف المصاحبة!

- فقد صار له علينا الحقُّ إذن أن نُثبته فى ديوان الجند، وأن نقدِّر له الأعطية ونعفيه من عبء الجهاد، حفاظًا لعهد أبيه واعترافًا بما أبلى فى الحرب وما لا يزال يُبْلى....

- بُورك لك يا مولاى !

- وبُورك لك يا أبا عتيبة !

- ولكن هذه الرؤيا التى رأيت . . .

- أكتمها يا نعمان فلا تقصُصها على أحد، حتى ندخل المدينة فنلتمس ابن سيرين[1] فى مسجد رسول الله ﷺ فنقصها عليه فنسأله تعبيرها؛ وإنى لأرجو أن تكون خيراً بُشِّرْتَ به !

- وانسرح مسلمة فى واد سحيق والهواجسُ تصطرع فى رأسه، وانسرح النعمان فى وادٍ آخر . . .

هذه الرؤيا التى قصها النعمان على مسلمة لم تكن غريبة عليه؛ لقد تراءت له فى إغفاءته تلك القصيرة كما تراءت لصاحبه وكما قصّها عليه؛ ولو كانت أضغاثَ أحلام[2] لما تراءت فى صورة واحدة لرجلين قد اختلفا نفسًا وتباعَدَا آمالاً وتَبَايَنَا فى أسلوب العيش وإدراكِ صُور الحياة !

وخطرت فى رأس مسلمة صورةُ أمِّه ورد، ثم غابت فى حواشى الظلام، وخفق قلبه خفقة؛ لقد خلّفها فى دمشق مريضة؛ أتكون الآن فى اللحظة التى تذكُر فيها كلُّ أم ولدها،

(١) عالم من علماء المسلمين كان له بصر بتفسير الأحلام.

(٢) اختلاط أحلام.

وولدُها بعيدٌ قد لفَّه الليلُ في مجاهل البادية فليس له سبيل إلى لقائها ؟

وضاق صدره، ولكن نسيم الليل الهادئ لم يلبث أن ردَّه إلى نوع من الهدوء يُشبه الاستسلام؛ فاطَّرح كلَّ ما كان يصطرع من الأوهام في رأسه وأقبل على ذكر الله مطمئنًا راضيًا مؤمنًا بقضاء الله وقدره !

□□□

[١١]

لبَّيك أبا أيوب!

وعاد ركب الحاجِّ من المدينة ولم يكن فيه النعمان، فقد حَضَرَهُ أجله فى مكة قبل أن يُحلَّ من إحرامه[١] وقبل أن يدخل المدينة ليقصَّ رؤياه على ابن سيرين ويعرفَ تأويلَها، ولم يقصَّها عليه مسلمةُ أو يلتمس لقاءه؛ فقد كان من رُزْئه بصاحبه فى هَمّ، وكان من الرغبة فى سرعة الرَّواح إلى دمشق ليرى أمه بحيث لم يمكث فى مدينة الرسولﷺ إلا بمقدر ما زار ووفى النُّذور وفرّق الأعْطِيات؛ ثم نادى مناديه فى القافلة بالرحيل!

ويبلغ دمشق، ولكنه لم يرَ أمَّه؛ فقد ودَّعت أمُّه دمشقَ وتركتْ دنياها جميعًا قبل أن يعود مسلمة ولدها من حجَّته!

وقعد مسلمةُ أيامًا يتقبّل العزاء؛ ولكنه لم ينسَ منذ أول

(١) مات قبل أن ينتهى من شعائر الحج.

لحظة هبط فيها الحاضرة أن عليه حقاً لرفيقه الذى خلفه تحت الجنادل فى صعيد مكة؛ فأرسل رسولاً إلى ولده عُتيبة فى الرقة، وأرسل معه لأسرة الشهيد مالاً وأحمالاً . . .

كانت جيوش الفتح قد بلغتْ شأواً بعيداً فى الشرق والغرب: قد قَوَّض جيشُ المغرب عرش الإسبان وحاز الأندلسَ من أطرافها، وأخذ يتهيَّأ للزحف شرقًا نحو بلاد إفرنسة وما يليها من أرض الروم.

وبلغت جيوشُ المشرق قَزْوينَ ونفدت إلى شواطئ بحر بُنطش.

واتخذ أسطولُ العرب قواعدَ فى ثغور بحر الروم يتهيأ منها للوثبة؛ وما تزال بعضُ سفنه تغدو وتروح على بحر بُنطش وخليج القسطنطينية فتصيب من ثغور الروم غنائم وأسرى وسبايا؛ وما تنفكُّ قُوَّات الفدائيين من العرب المتطوِّعة تُغير على أطراف بلاد الروم تُشَعِّث فيها وتدكُّ حصونَها وتنشر بين أهلها الرعب والفزع.

وقد عجزت جيوش الروم عن صد هذه الغارات العربية المتتابعة على البر والبحر، وأخذوا بالرعب عن تدبير أسباب الدفاع عن بلادهم، فساءوا رأيًا فى القياصرة والبطارقة والأمراء وقادة الجند، ووقعوا فى اضطراب وفوضى ولَجَاج

عنيف؛ فلا يكاد يستقرُّ على العرش قيصر من القياصرة حتى يُبادروا إليه فيخلعوه فيقتلوه أو يَسْملوا عينيه ويَجْدعوا أنفه[١] وينفوه إلى جزائر البحر أو سهولِ القريم . . .

وخلا عرشُ القسطنطينية من قيصر، وسنحت الفرصة ليضرب العرب ضربتهم الحاسمة. وقال أنسطاثيوس الصالح كاتم سرِّ القيصر المخلوع:

- قد والله أوشك العرب أن ينالوا مَنَالهم ويملكوا البر والبحر والسهل والجبل؛ وقد غلب أسطولُهم على البحرين ونفذ إلى الخليج ووطئت جنودهم ساحل «أبيدوس[٢]»، وكأني بهم قد وثبوا غداً إلى «بيزانت[٣]» و«كيلس»[٤] فنقبوا الأسوار أو تسلَّقوها كالجن فإذا هم بين ظهرانينا لا يردُّهم أحد؛ وكأني بمسلمة على رأس جيشه قد وطئ بلاطَ قسطنطين وحطّم تاجه ودنَّس «أياصوفيا[٥]» بنعله وكَبَّ تمثال العذراء على وجهه!

قال قسطنطين بطريق أبيدوس:

(١) يفقؤوا عينيه ويقطعوا أنفه!

(٢) من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

(٣) من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

(٤) من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

(٥) كنيسة مقدسة من كنائس الروم.

- بعضَ هذا أيها الأمير ؛ فوالله لا ينالون منّا مَنَالاً وفينا عرق ينبض ؛ فإلاَّ يكنْ دفاعُنا عن أرضنا وديارنا وحُرياتنا، فَليكن دفاعنا عن الصليب وتمثال العذراء !

قال ميناس القائد ساخراً :

- فهلا دافع قسطنطينُ عن عِرضه إذ سُبيتْ بنتاه وسيقتا تحت عينيه إلى الأسر فلم يستطع ردَّهما ولم يزل يبكى فقدهما بكاءَ يعقوب(١)، لا يكاد يخفتّ لأخذ الثأر ؟

قال قسطنطين مُغْضَبًا :

- ألى يُقال هذا ؟ وما رأيت بطريقًا من البطارقة قد حَمَل بعضَ مَا حملتُ من عبء الدفاع عن ذلك الثغر ؛ فإن كانت بنتاى قد سُبيتا واحدةً بعد واحدة فما قصَّرتُ فى الدفاع ولا عجزتُ عنَ الثأر؛ وما طَرَقَ العدوُّ أبيدوس مرة إلا خلَّف نصفَ جنده على ثراها صرعى أو أسارى مقرَّنين فى الأصفاد ؛ ووالله ما يَخْدُمُ أهلى منذ بعيد إلا الأسارى من سادة العرب !

وكأنما أجدَّ هذا الحديثُ ذكرى أليمةً لقسطنطين ومسَّ عاطفتَه حديثُ بنتيه، فغلب مدمعُه . . .

وكان قسطنطين هذا بطريقًا شيخًا قد نيَّف على السبعين ؛

---

(١) يعقوب : أبو يوسف الصديق، وكان بكاؤه لفقد ولده مضرب المثل.

وكـان له فى تلك الدولة سلطان وجـاه قـبل أن يتـغلب على عرشها هؤلاء المتغلّبون من السُّوقة والطُّغام وكلٌّ صاحب أيْد وكيد، من قيصر كان غَنَّامًا، وآخر كان جابيًا، وثالث كَانَ جندياً فى المؤخرة فبرز إلى الطليعة ثم ترقى إلى القيادة ووثب على العرش(١)؛ فلمـا اضطرب حـالُ القـيـاصـرة وضـعـفت مَـهَـابتُـهم فى نفـوس الخـاصـة والعـامـة وآذنت الدولةُ بهـذا الانحلال الخطير، اعتزل البلاط وعَزَفَ عن السياسة وأوى إلى هذه البُلَيْدة على الشاطئ الأسيوى من خليج القسطنطينية، فحشد فيها أهله وولده وقبيلَه، واتخذها دار إقامة بعيدًا عن مكايد الساسة ومؤمرات القواد وتقلبات الحوادث . . .

ولكنه وقـد التـمس الهـدوء فى موطنه هذا الجديد لم يوفّق إلى ما أراد، فإن غارات الفدائيين من العرب لم تزلَ تناله من البر والبحر؛ فلمـا كـانت أيام القيـصر «قسطنطين بوغونات» وحاصـرتْ جيـوشُ معـاوية مدينة الروم فطوقتـها براً وبحـراً بالآلاف من السـفن وعـشـرات الآلاف من الجند(٢)، نزلت أبيدوس َسَريَّةٌ من سرايا العرب فأعجلت أهلَها عن الدفاع وعاثت فيها عَيْثًا شديدًا، ففتكت وهتكت واحتملت أسارى

(١) كذلك كانت حال القياصرة فى تلك السنين.

(٢) هى غزوة ذات الصوارى.

وسبايا؛ وكان فيمن سُبيت «رُودْيا» بنت قسطنطين نفسه؛ وقد دافع البطريقُ البطل عن أهله وولده وبلده ما استطاع الدفاع، حتى ردَّ العرب على أدبارهم، ولكنه لم يستطع أن يستخلص فتاته السبيَّة، وحُملت فيمن حُمل من الأسارى والسبايا إلى دمشق...

وتتابعت غاراتُ العرب بعد ذلك على هذا الحصن الصغير كلَّ صائفة وكلَّ شاتية، ولكن قسطنطين لم يُقصِّرْ فى الدفاع مرة...

فلما كانت أيام جوستنيان الثانى -بعد استباء بنتِ قسطنطين بعشرين سنة أو يزيد- وبدا للروم أن الدولة العربية فى الشام قد أشرفت على الانحلال -أيام عبد الملك- لمَا يَتَوزَّعُها من أسباب الخلاف وما ينشب فيها من الفتن، كَان قسطنطينُ أولَ من كتَّب الكتائب الروميةَ لاهتبال الفرصة السانحة ودعا الروم إلى التطوع للجهاد؛ وكانت الفرقة التى ألَّفها من بنيه وبنى إخوته ومن شباب أبيدوس، أولَ فرقة رومية وطِئتْ ثغر أنطاكية وأوغلتْ فى أرض الشام. ثم كان الصلح بين عبد الملك وجوستنيان الثانى فارتدَّ الروم مُصحرين أو مبحرين[1].

(١) فى الصحراء أو فى الليل.

إلى بلادهم، ولكن قسطنطين لم يرتدّ حتى أصاب غنائم وأسرى مصفدين فى الأغلال يسوقهم إلى أبيدوس؛ ولولا أن جوستنيان أمره فأغلظ فى الأمر لماعاد حتى يُثخن فى بلاد العرب و يبلغَ من العلم مبلغًا عما آل إليه أمرُ ابنته التى استباها العرب منذ نَيِّف وعشرين سنة، ولكنه مع ذلك قد ارتدَّ بأسارى يرجُو أن يبقوا عنده رهائن إلى يوم قريب أو بعيد.

وكان الشاطئ الشمالى من خليج القسطنطينية قبلَة الغُزاة العرب فى كل غارة، حيث يثوى أبو أيوب الأنصارى؛ يهاجرون إليه لينزلوا عليه ضيوفًا فى داره هذه التى اتخذها مَثْوًى إلى يوم يبعثُ اللهُ الموتى؛ فكانت أبيدوس لذلك طريقًا لهؤلاء الغزاة المغيرين، يُبَيِّتونها[1] برًا وبحرًا فى الذهاب والعودة، ويصيبون من أهلها ويصيب أهلُها منهم؛ فلم تنقطع الغارات عليها صائفة وشاتية، ولم يكفّ قسطنطينُ عن النضال!

ثم كانت غارةٌ من تلك الغارات الباغتة، أثخنَ فيها العربُ فى الروم إثخانًا شديدًا واحتملوا أسارى و سبايا؛ وكان بين السبايا ابنةٌ أخرى لقسطنطين، لم تَنضَجْ نضْجَ الأنثى ولكنها

(١) يفاجئونها فى مثل.

جاوزت حدَّ الطفولة . . . . وافتلذ العربُ فلذةً أخرى من كبد البطريق المرزأ . .

هل كان البطريق قسطنطينُ يجاهد العرب منذ ذلك اليوم ثأرًا لابنتيه السبيَّتَين أو ثأرًا لوطنه كفاحًا عن أمجاد قومه ؟

مَن يدرى ؟ ولكنه على أىِّ حاليه لم يكفَّ عن النضال !

وهذا القائدُ ميناس يُعَيِّره بسبْى ابنتيه ، ويوشك أن يتهمه فى وطنيته ، وفى شجاعته ومُصَابرته ؛ فيدافع دفاع الغضبان ، ثم لا يلبث أن يغلبه الدمع !

يا لَلْبطريق الشيخ ! دَرِيئَةٌ من درايا قومه[1] يتلقى عنهم سهامَ العدوِّ ففى كل موضع منه جراحةٌ لم تلتئم ، ويتّهمه قومُه بالجبن والخَوَر ! . . . وابنتاه . . . أين هما اليوم ؟

أحظيَّتَان فى بعض بيوت الأمراء والسادة ، أم جاريتان مُمْتَهنَتَان فى بعض بيوت الرّعاع والسُّوقة ؟

أولَدتَا لبعض العرب جُندًا يشهرون بالسيوف فى وجوه بنى الخال والخالة من سادة الروم ؛ أم آثرتَا الموتَ على ذُلِّ الإسار أو آثرهما الموت ؟

(١) قوة من قوى الدفاع عن قومه .

أتذكرانه كما يذكرهما ويذكرهما معه الإخوةُ والأخواتُ وبنو الأعمام والعمَّات؛ أم استبدلتا في العرب أهلاً بأهل وباعتَا بالسيد و الولدِ الأبَ والأمَّ والإخوة والأخوات ؟

في أيِّ البلاد تعيشان، أو في أيِّ الأرض سُوِّيَ عليهما التراب ؟

ابنتا البطريق المعظَّم، جاريتان قد انقطعت بينه وبينهما الأسباب؛ فيا له من الفجيعة في ابنتيه، وياله من بذاءة بعضِ قومِه !

قال أنسطاثيوس الصالح :

- هوِّن عليك يا قسطنطين؛ فقد علم والله كل روميٍّ في هذه البلاد بَلاءَك في جهاد العرب؛ فَلاَ عليك من قولٍ لم تحمل عليه إلا الغَيْرَة !

❁❁❁

وبويع أنسطاثيوسُ قيصراً، فراح يحاول ما يحاول لتدبير أمر البلاد وتنظيم قوات الدفاع، ولكن غارات العرب المتابعةَ لم تَدَعْ له فرصةً للتدبير ولا لتنظيم قوات الدِّفاع، فنالوا منه ولم ينل منهم؛ وتوالت هزائمه في البر والبحر؛ فاعتزل العرشَ إلى بعض الأديار حزينًا أسوانَ يلتمس في الصلاة والدعاء بعض السُّلوان !

ووثب إلى العرش سوقيٌّ آخر كان جابيًا للخَرَاج فى بعض الأقاليم؛ فلم تكن حال البلاد فى عهده خيرًا منها فى عهد أسلافه؛ واضطرب به الأمر وأحاطت به الأحداث. . .

وكان العرب وقتئذٍ يتأهّبون للغارة الكبرى تحت راية مسلمة! . . .

❊❊❊

كان سليمانُ بن عبد الملك فى بستانه، قد رمى نفسه على الرمل بلا وطاء يَتَبَرَّدُ من حرِّ ذلك النهار، وإلى جانبه زنبيلان قد مُلِئا بَيْضًا وتينًا، فهو يمدُّ يده إلى زنبيل بعد زنبيل يأخذ من هذا ومن ذاك بيضةً وتينةً بعدَ بيْضةٍ وتينة، حتى أتى على الزنبيلين وما شَبِع؛ ثم ألزَقَ بطنَه بالرَّمل وهو يقول:

- ما أحبَّ إليَّ هذه المنامَة وأبْرَدَهَا فى هذا اليوم القائظ!

ثم أتوه بغدائه: جَدْيٌ مشويٌّ كأنه عكّة سمن، ودجاجتان هنديتان كأنهما رألا النَّعام، وعُسٌّ يغيب فيه الرأس قد امتلأ حريرة كأنها قراضة الذهب، ثم صُفَّ بين يديه ثمانون قدرًا مختلفة الألوان. . . [1].

واعتدل سليمان فى مجلسه وأقبل على الجدى المشويِّ فأتى

(١) كان سليمان أكولاً بطينًا لا يكاد يشبع.

عليه، ومال على الدجاجتين يأخذ برجل واحدة بعد الأخرى فيُلقى عظامها نقيَّة، ثم جعل يقلع الحريرة بيده ويشرب ويتجشّأ كأنما يصيح فى جُبّ؛ فلما فرغ من ذلك مال على القُدور الثمانين يكشف قدرًا بعد قدر فيأكل من كل منها لقمةً أو لقمتين أو ثلاثًا . . ثم مسح يديه واستلقى . . .

قال له مسلمة :

- أمتعك الله يا أمير المؤمنين وأمتع بك ! . . . .

- ويْكَ يا مسلمة؛ فهل عندك من جديد ؟

- نعم، فإن هذه الروم على ما ترى من الضعف واختلاف الأمر وهوان المنزلة؛ ولم يبقَ ثغرٌ من ثغورهم مما يلى بلادنا إلا وطئه جندُ العرب وجاسوا خلاله، ولا حصْنٌ من حصونهم إلا شعَّثناه حتى تطامَنَ من شُموخ واستُبيح بعد مَنَعَة؛ وإنى أرى الأوان قد آن يا أمير المؤمنين للضربة التى تدكُّ حصونَهم وأسوارهم وتُبيح أرضهم وحريمهم وتُعلى كلمة الله فى تلك الأرض الكافرة !

- وعَتَادُك وجندُك ؟

- على الأهبة يا أمير المؤمنين؛ عشرون ومائة ألف فى البر؛ ومثلها فى البحر .

– وسفنُ الغَزْو ؟

– ثمانمائة وألف سفينة تُطَاوِدُ الموجَ ولا فوقها السحب !

– والنارُ الروميَّة يا مسلمة ؟

– لن تنال منا مَنَالاً يا أمير المؤمنين أو تُوهنَ لنا عزيمة ؟

– وتلك الأسوار الملَّسة لا يقف عليها الذَّرّ، الشامخةُ قد ركبتْها السحب ؟

– سيفتحون لنا الأبواب طائعين حين يضرٌّ بهم الحصار، فلا تكون أسوارهم هذه إلا سجنًا لهم لا يملكون مُنْصَرَفًا عنه !

– ولكن الحصار لا يضرٌّ بهم من قريب يا مسلمة، وعندهم من الزاد والأقوات–ومما تمدُّهم به أمُ النصرانية فى الأرض الكبيرة، وما يُعاونهم به البلغار من غلاَّت بلادهم–ما يطول معه الأمد !

– سنُصابرهم حتى ينفَد المذخور، وينْكل الصَّبور، ويتسللَ الجبان، ويسأم الأعوان، وينقطعَ المدد !

– وشتاؤهم الذى يُجَمِّد الأطراف ويوجب الكِنّ ؟

– سنبنى حول الأسوار بيوتًا كبيوتهم، ومصانعَ خيراً من مصانعهم، ونتخذها دارَ إقامة حتى يفتح الله علينا وتَسقط فى أيدينا مدينةُ قسطنطين !

- وطعــام الجــيش وزاده، والطريقُ إليكم طويلٌ والبــرُّ مُوحش والبحرُ هائج ؟

- سيكون لنا هناك زَرْع وضَرْع، ومرعى وماشية !

- أراك يا مسلمة تُحاول عظيمًا من الأمر !

- كلُّ عظيم يا أمير المؤمنين فأنت أعظمُ منه !

- الله يا ابن عبـد الملك، إنك لتنكر قَدرك، ولولا أنْ سَبَقَ إليّ عهدُ أمير المؤمنين عبد الملك لكنتَ أحقَّ بها وأهلَها[1]!

- ولكن الدولة عربيةٌ يا أبا أيوب !

- وأنت مسلمةُ بنُ عبد الملك !

- بل أنا ابنُ وَرْد[2]!

- فهلْ تَرَى ولدَ عبد الله بن عمر قد نقص من قدره شيئًا أنَّ أمَّه من بَنَاتِ سابُور[3]؟

- قد سمعتُهم يمزحون فيقولون: إنه أحقُّ بعرش كسرى !

- فأنت إذن أحقُّ بعرش قيصر[4]!

(١) يعنى الخلافة.
(٢) يعنى أنه ابن جارية رومية، فليس له حق في ولاية عرش العرب.
(٣) تزوج عبدالله بن عمر بن الخطاب إحدى بنات سابور، كسرى من أكاسرة الفرس، فولدت له، وكان لولده منها مكانة لا يجحدها قومه.
(٤) يعنى: على هذا القياس تكون أحق بعرش قيصر الروم، لأن أمك منهم.

- ها أنت ذا قُلتَها يا أبا أيُّوب !

- والله لولا أنى لا أملك أن أخلع نفسى وأنْضُو قميصًا قد قَمَّصَنيه خليفةُ رسول الله ﷺ[1]، لرضيتُ طيِّبَ النفس أن تجلس مجلسى على عرش عبد الملك، وإنك لأعظمُ فى نفسى مهابةً وأدنى إلى قلبى منزلةً من ولدى أيُّوب.

- أمتعك الله به يا أمير المؤمنين حتى تُبايع له بالعهد من بَعدك؛ إن أيوب ابن أمير المؤمنين لريحانةُ هذا البيت، وإنى لأرجو أن يكون له شأنٌ فى غدِه !

- طاب فألك يا أبا سعيد !

- وطاب عهدُك! إنك يا أبا أيُّوب لميمونُ الكُنْية؛ فكأنِّى بك أردتَ أن يكون أبو أيوب الأنصارى أولَ من يبلغ أسوارَ القسطنطينية من العرب، وأن يكون أبو أيوب الأموى[2] أولَ من تفتح له بابها، فيطأ بفرسه بساط قيصر، ويحطِّم أصنام الشرك فى كنيسة أياصوفيا، ويجهر بالأذان فى أكبر بيْعة من بِيَع النصرانية !

- طابت نفسى والله لحديثك هذا يا أبا سعيد؛ وإنى لأرجو أن يكون ما قلت؛ فخذ فى أسبابك منذ اليوم والله معك !

(١) قمصنيه: ألبسنيه، والمعنى أنه لولا أن عبد الملك خليفة رسول الله ﷺ قد ألبسنى قميص الخلافة لرضيت.

(٢) يعنى سليمان نفسه.

[١٢]

وفاءٌ بذمة

لو لم يَسبق الأجل إلى ورد أمُّ مسلمة لقرَّت اليوم عينًا ؛ فسيبلغ مسلمةُ عرشَ قيصر ، ويطأ بساطه ، ويلبس تاجه ، وتدينُ له تلك البلاد جميعًا بالطاعة والولاء ؛ ولكنه يتلفَّت حواليه فلا يرى أمَّه ، ولا تراه أمُّه ؛ لقد فرغتْ من الدنيا قبل أن تكتحل عيناها برؤية ولدها مسلمة في الموضع الذي كانت تأمُلُ أن تراه فيه . . . .

ولكن صورةً أخرى تتراءى لعينيه الساعة : صورة فتًى عربيّ ، في وجهه شحوب ، وفي عينيه زُرقة وعُمق ، ولصوته نَبْرٌ عَذْب ، فيه مخايلُ من صديق له قد مات منذ قريب وغَيَّبَتْه الصفائحُ في البلد المحرَّم . . . وإلى جانبه امرأةٌ مُنْتَقبةٌ شابَّة تجول عيناها وراء ستر شَفيف ، تُجدُّ لها نظراتُها ذكرى فلا يكاد يكفّ عن النظر إليها ؛ لا يُخجله من ذلك أن ولدها الشابَّ إلى جانبها ، ، وأنها أرملةُ صديقٍ قد مات منذ قريب . . .

تلك الصورة قد رآها ذات مرة فى الحلم كأنْ قد أبصرها بعينين، ثم سمع صديقَه يقصُّها عليه كما رآها فوَعَاها بأذُنين؛ وها هى ذى تتخايلُ لعينيه الساعةَ يَقظانَ فكأنما هى صورةٌ فى إطار ما تزال عليها العينُ مرة بعد مرة فلا تُنكر من ملامحها شيئًا!

وتَحْضُرُه إلى جانب هذه الصورة ذكرياتٌ أخرى وصورٌ شتَّى وأحاديثُ مُتباينة، فلا يكاد معها يحقِّق أمرًا مما يَرِدُ على خاطره!

لقد كان لأمِّه معه ذات يوم حديثٌ ما يزال صَدَاه فى نفسه، فإنه ليذكره كلما خطرت القسطنطينيةُ فى باله أو أزمع مع الروم حربًا...

وكان له ولصاحبه النعمان حديثٌ آخر مع الراهب الشيخ فى الدير المنفرد فى أرض البلقاء، ما يزال صداه يمتزج بصدى حديثه إلى أمه... وتلك الرؤيا...

ثلاثُ صور تتزاحم وتلتحم وتتماسُّ أطُرُها فلا يَبين منظر من منظر، ولكن وراء اجتماعها صورةً أخرى لم تَرَها عيناه بعد...

فلعله يراها أو يرى تأويلَها حين يدخلُ القسطنطينة ظافرًا على حصانه!

إن الحقيقة الناصعة التى يَنْشُدُها من وراء هذه المُعَمَّيات قد تَمَزَّقت الصحيفةُ التى تقصُّ خبرها، فَشَطْرٌ منها فى القسطنطينية وشَطْرٌ فى يده؛ فإذا لم يوافق هنالك شَطْرَ الصحيفة التى يجد فيها تمامَ ما يعلم، فلابد أنه واجدهُ عند الذين يتوارَثون عِلْمَ الملاحِم من رُهبان القسطنطينية !

وكان عتيبة بن النعمان فى لهو الشباب حين جاءه نعىُ أبيه؛ فغمَّه ذلك غماً ردَّه فى الشباب إلى الكهولة !

وبكت الأم العجوز ما شاءت أن تبكى، فذكرته وذكرت أباه وذكرت أخاه عتبة؛ ثم فاءت إلى الصبر والرضا بقضاء الله؛ راجيةً فى حفيديها بشير وعُتيبة ما كانت ترجو عند ولديها اللذين مضيا وخلَّفاها فى وحدتها هذه الموحشة تجترُّ ذكرياتها السعيدةَ والمؤلمة وأحزانَها المتعاقبة !

وبكت زوجُه حتى غارت عيناها نُحولاً وشحوبًا؛ وضاعف الحزنُ انقباضَها عمن معها فى الدار فانطوت على ما فى نفسها من آلامٍ يعرف مَنْ يَعْرِفُ طَرَفًا ولكن سائرها لم يطَّلع على غيبه أحدٌ !

وبكت نوار؛ فقد كان النعمان أباها وعمَّها جميعًا، وقد حمل على كتفيه عبء الثأر لأبيها فلم يزل يَنْشُدُه فى كلِّ مَهْلَكَةٍ حتى أدركه أجلُه. ثم إنه إلى ذلك كلِّه أبو

عتيبة، وحَسُبها ذلك سببًا إلى الحزن لا تغيض مدامعُه! . . . .

وسَفَرت نوارُ عن وجهها منذ جاءها النبأ بمصرع عمها، فقالت لصاحبها:

- قد مات أبوك يا عتيبة وعليه نذرٌ لم يتهيأ له الوفاء به.

- نَعَم، الثأرُ لأبيك برأس بطريق من بطارقة الروم، أو الثَوَاءُ تحت أسوار القسطنطينية فى ضيافة أبى أيوب!

- وتريد وفاءً بهذا النذر يا عتيبة؟

- وأزيد عليه يا نوار أن آتيَك بتاج البطريق وأخدمَك ابنته![1] وتضرَّجت وجنتاها وقد فهمت ما يعنيه؛ فقالت وقد غضَّت من بصرِها:

- الثأرُ أولاً يا عتيبة!

- بل نذرُ أبى يا نوار، أما ثأرُ أبيك فلولا نذرٌ مات النعمانُ ولم يفِ به لكان أخوك بشير جديرًا بأن يحمل عباه[2]!

(١) انظر حديث النعمان وزوجته.

(٢) يعنى أن ابن عمه أولى منه بالسعى لطلب ثار أبيه.

- وساءها أن يُعيِّرها بأخيها وضعف همّته وإيثاره الدَّعَة، ولكنها لم تغضب؛ فقد سرَّها أن يكونَ عتيبة بحيث أراد أن يصف نفسه؛ فقالت:

- النذرُ والثأر جميعًا يا عتيبة؛ فذلك ميراثُ أبيك!

- لو لم يكن ميراثَ أبى لكان أمرًا من نوار واجبَ الطاعة؛ وما يكون لى أن أنكُصَ أو أرَوِّى فى أمرى[1] يا ابنة العم لو أنك أمَرْتنى أن أثبَ إلى النار الموقدة لأقبس لك منها جذوة ملتهبة، أو أخوض فى بحر من الدم لأخرج لك لؤلؤة حمراء، أو أتطوَّحَ فى مهاوى الريح لأردَّ إليك صدى أغنيةٍ عذبة ملأتْ نفسَك فلا تريدين أن يُفلت صداها فى الزمن!

- أكذلك أنتَ يا عتيبة؟

- بل اسألينى يا نوار: أكذلك أنا فى نفسكَ يا عتيبة؟

- وتكتُمُ عنى؟

- بل أنت تعرفين وتُصِرِّين مع ذلك على الكتمان!

- ألم تكن تعلم.....؟

- كنت أعلم عِلْم نَفسى يا أخَيَّة، وأهابُك أن أسألك عن علمِ نفسِك!

(٣) أتانى فى أمرى.

- فقد علمتَ اليوم !

- وقد علمتِ أنت يا نوار !

- ليتنى لم أعلم !

- هل ساءك إذن أن تعرفى أننى أحبُّك !

- بل ساءنى أن أعلم ذلك حين أنتَ على أهبة الرحيل عنا يا عتيبة !

- ولكنك أنتِ التى تريدين أن أرحل لأدرك ثأرًا وأوفى نذرًا و . . .

- وماذا يا عتيبة ؟

- وأجمعَ مهرًا يا نوار !

- ولكن بقاءك أحَبُّ إلىّ !

- وأحبُّ إلىَّ يا نوار، ولكن الدم المَطْلُول يطلب واتِرَه[1] !

- قد أخذ أبوك بِوِتْرِه، وقتل بأخيه رجالاً وأطاح برأس رءوسًا !

- ولكنه لم يحمل إليك رأسَ بطريق وتاجَه !

- ولكنى أخاف عليك يا عتيبة !

(١) الواتر: طالب الثأر.

- فلستُ إذن أهلاً لحبِّك يا نوار !

***

ثم انقلب عتيبة إلى حيث كانت أمه سبيكة :

- أمى !

- ولدى عتيبة !

- إننى ذاهب !

- إلى أين يا عتيبة؟

- إلى حيث ذهب عَمِّى، وأبى !

- ولمن تَدَعُ أمَّك يا عتيبة ؟

- تعالى معى إن شئت، فلن تقعد بى أمومتُك عن الجهاد .

- ولكن الأمهات لا يصحبن أبناءهن إلى الحرب .

- فما هؤلاء النساء وراء كلِّ جيش محارب ؟

- زوجات لأزواجهن، وأخواتٌ لإخواتهن؛ يدفعنهم بحرارة الحب إلى الاستبسال فى النضال ليكسبوا الحظوة عندهن؛ وما أنا وذاك يا عتيبة وقد جاوزتُ تلك المنزلةَ فليس إلىَّ مشتاقٌ ولا وامق .

- تُعَوِّقيننى إذن ؟

- ولِمَهْ ؟

- لأنك . . . لست أدرى !

- بل تدرى شيئًا تحاول كتمانَه .

- فَلِمَ تُعوِّقيننى إذن ؟

- لأننى أمُّك .

- وكلُّ هؤلاء المجاهدين لا أمهاتٍ لهم .

- ولأننى فى هذا الحىِّ من العرب لا عمَّ لى ولا خال!

- أراك لا تُحاولين الكتمان !

- ماذا تَعنى يا عتيبة ؟

- أنت تكرهين أن أشرع فى وجه الروم سيفًا !

- ولِمَهْ ؟

- لأن لك فى الروم عماً وخالاً !

- إننى أنا أمُّك يا عتيبة !

- قد علمتُ !

- وذلك كلُّ نَسَبِى !

- وتَرْضَيْن أن تنتسبى إلى جبان، لا يخفُّ لثأر عمه ونذرِ أبيه ؟

- ومهرِ امرأته ! . . .

- قد عرفتِ إذن ؟

- ومن أجل هذا منعتُك يا عتيبة !

- من أجل أنك لا تُحبين نوار !

- بل إننى أحبها وأرى ولدى بها أسعدَ زَوْج؟

- ومن أجل ذلك تَحُولين بينى وبينها !

- بل أحـول بينك وبين اقـتـحـام المخـاطر من أجل امـرأة؛ ليست هذه هى البطولة !

- فما البطولةُ إذن فيما تَرَيْن؟

- ألا تطيع فيـمـا تكرهُ امرأةً تُحبُّهـا؛ وأعلى من ذلك مرتبةً فى البطولة أن تَقْسُرَها على طاعتك !

- ولكننى لم أطعها !

- ففيمَ خروجُك إلى الحرب إذن ؟

- وفاءً بنذر، وإدراكًا لثأر . . .

- وطاعة لأمر . .

- بل عصيانًا . . .

- لأمرى؟

- لأمر نوار !

- كيف ؟

- لقد منعتنى أن أخرج فعصيت !

- وَىْ !

- وقَسَرْتها على طاعتى؟

- لقد كان لك -إذن- معها شأنٌ يا عتيبة !

- نعم، وسأعصيك كما عَصَيْتها !

- تعصينى ؟

- نعم، وأقسُرُك على طاعتى !

- وتَقْسُرُنى أيضًا ؟

- نعم، لأننى أحبُّك يا أم !

- إنك لبطلٌ يا عتيبة !

- لأنك أنت ولدتنى يا أمَّاه !

- بل لأن أباك النعمان !

وشرقتْ سبيكة بدمعها فأخفتْ رأسَها فى صدر عتيبة وأجشهتْ باكية !

[١٣]

نفير الحرب!

«أروح إلـــى القُـصــَّاص كُلَّ عَـشِــيَّــة
أرَجِّـــى ثـوابَ الله فــى عـددِ الخُطَـا !»

قالت العجوز الثَّكْلى :

إنى لأجـدُ ريحَ عتبـةَ والنعـمان ، وأسـمع رَجْع غنائهـما ؛ فانظروا لى مَنْ ذلك يُرَجِّعُ هذا الصوت وإنى به لبعيدةُ عَهْد !

قالت نوار :

- ذاك عُتيبـة ، مـا يزال منذ أيام يُرَجِّع هـذا الصـوتَ غـاديًا ورائحًا . . .

- رحم الله أباه وعـمـه ، وبُورك لى فـيـه وفى بشيـر ؛ لقـد أذكَرَنى غناؤه أباك وعمَّك يا نوار ، إذ كانا يرددان هذا الصوت كلما غَدَوَا على المسجد أو راحا ؛ فإن هؤلاء القُصَّاص الذين

يَغْشَوْن مساجدَ المصر للوعظ والتذكير ورواية الأخبار والنوادر، لَيُوهمون من يَغْشَى حلقاتهم من الفتيان أن يومًا فى مجلسهم ذاكَ خيرٌ عند الله من سبعين صلاة؛ فما يزالون يجتذبونهم بهذا الخيط الدقيق حتى يلزموا حلقاتهم، ثم لا يزالون ينفثُون فى عُقَدِهم من سحر القول حتى يسوقوهم إلى المنايا باسم الجهاد فى سبيل الله!

ودخل عُتبة خفيفَ الخطا، فسمع، فقال:

- ماذا تقولين يا جدة؟أحرامٌ أن نَغْشَى المساجد، وأن نستمع إلى القصاص، وأن نخرج مجاهدين فى سبيل الله!

- لم أقُل هذا يابنى!

- فما هذا الذى سمعتُ من قولك؟

- لقد قلتُ: إن فى عتيبة ملامحَ من أبيه، وفى صوته أيضًا؛ وكان أبوك ينشد هذا الشعر إنشادك كلما غدا إلى المسجد أو راح؛ ثم ذهب إلى الميدان البعيد فلم يعد؛ كما ذهب أخوه من قبل؛ طار على جَنَاحِ شاعر ثم وقَع..

-ولكن عُتبة سيطير، فلايقع!

-لقد همَمْت إذن؟

- نعم!

- وتعرف سبيكةُ أنك ذاهبٌ لحرب الروم؟

- قد عرفتْ!

- وطابتْ بذلك نفسًا؟

- قد طابت نفسًا ورضِيَتْ!

- حسبتُها تأبى أن يشرع ولدُها سيفًا لحرب الروم!

- ولِمَه؟

- لأن.. لأنها قد عرفتْ ما حَرْبُ الروم!

- لم أفهم!

- أعنى أنها كانت خليقة أن تشفق عليك!

-عليّ؟..

- وعلى غيرك!

- مَنْ تَعنين؟

- رجوت أن تُشفق أمك عليك وعلينا، من سوء ما ينالنا به فراقُكَ!

- بل عنيت معنى آخر ياأم!

-أيّ معنى؟

- تسألينى؟

- لقد ظننتني أضمر وراء كلماتى معنى غير ما فسرت لك، فسألتك..

- بل إنك لتضمرين معنى آخر!..

وكانت نوار صامتة تستمع إلى ما يدور بين الفتى وجدَّته من حوارٍ بدأ رفيقًا هينًا ثم أوشك أن يكون خصامًا، فقالت فى رقة:

- إن جدَّتك لتعرف حميتَك ياابنَ عم، ولكنها تُشفق عليك وتجزع لفراقك؛ وإنك لتذكر ما قلتُ لك قبل أن تتحدث جدتك..

فاعتدلت الجدة فى مجلسها ونظرت إلى نوار قائلة:

- هَل قُلت له؟

- حاولت يا أم أن أحول بينه وبين مَا اعتزم، فلم يستمع إلىَّ؟

- أكذلك ياعتيبة؟

- نعم!

- ورضيتْ أمُّك؟

- كانت أدنى إلى الرضا من نوار ومنك!

- وأذنت لك أن تشرع سيفك لحرب الروم؟

- وأذنت لى طيبة النفس!

- ولم يسؤهَا أن يفارقها ولدُها إلى حيث تتوزعُها الهواجس والهموم وتصطرع فى نفسها المخاوف؟

- بلى، قد ساءها، ولكنها قد علمت أنه حقٌّ البطولة على كل عربى!

قالت نوار:

- بل حق البطولة على كل أمّ عربية!

قالت الجدة:

- قد صدقت سبيكة وبَرَّت!

ثم أطرقت وهى تقول وقد جال في عينيها الدمع:

- فاذهب مأجورًا يا عتيبة والله يكلؤك[1].

ووقف عتيبة فى فناء الدار مُشمرًا حاسر الذراعين يشُدُّ متاعه إلى ظهرراحلته وهو يُنشد:

وأشفق من وَشْكِ الفِراق وإننى
أظَنُّ لمحمولٌ عليه فراكبُه

(١) يحفظك.

فـــإن أســـتَطِع أغْلِبْ وإن يَغْلِب الهـــوى
فــمــثلُ الذى لاقــيتْ يُغْلَبُ صــاحــبُــه!

وكـانت عـينان دامـعـتـان ترقبـانه من وراء السجف حيث توارت فتاة موجعة القلب تراه وتسمع نشيده من حيث لا يراها ولا يسمع نشيجها.

ويغتتها سبيكة؛ فوضعتْ راحة على كتِفها وهى تقول فى رقة وعطف:

- أنتِ هنا وهو هنالك؛ فهلاًّ تراءيتِ له لتَشُدَّى عزمَه ساعةَ الفراق؟

قالت الفتاة وأطرقتْ مُستحيية:

- خـشـيـتُ أن يَهنَ حين يرانى أو يرى فى عـينىَّ الجـزعَ واللَّوعة!

وكان صوت آخرُ ينبعث من بعض غرفات الدار منشداً:

إذا مـــا أراد الغــــزو لـم تَثْن هَمَّـــهُ
حَـــصَـــان(١) عليـــهـــا نَظْمُ دُرٍّ يزينـهـــا
نَهَـــتْـــهُ، فَلمّـــا لـم ترَ النهى عـــاقَـــهُ
بكتْ فـــبكى مما شَـــجَـــاها قَطينُهـــا(١)!

(١) الحصان: المرأة المحصنة الشريفة. والقطين: الخدم، والأهل.

ووضع الفتى ما كان بين يديه ورفع رأسَه مُنصتًا، ودلفَت الجدة الثكلى إلى حيث كانت أم نوار جالسة تُدندن ذلك الشعر فقالت لها عاتبة:

- عهدُك بالغناء بعيدٌ يا أم بشير، فهلا أشفقتِ اليوم على الصبيِّ والصبية أن يسمعا غناءك هذا؟

قالت أم بشير ولم ترفع إلى العجوز عينين:

- لقد كان ذلك والله أحبَّ الشعر إلى عتبة حين يُزمِع رحلة!

قالت الجدة وهى منصرفةٌ قد ضاقت نفسُها بما سمعتْ من جواب:

- فقد رحل عتبةُ ولم يَعُدْ!

وسكن الصوت، فعاد الفتى يُنشد وهو يعالج أحماله:

وأشفق من وَشك الفراق..

وخفَّت إليه نوار مُعجَلةً قد سَوَّتْ ثيابها وجفّفت دموعها فى عينيها، ثم استقبلته قائلةً وقد اصطنعت الابتسام والمرح:

- ماذا سمعتُ من إنشادك ياعتيبة؟ هلاَّ كان قولُك لنفسك:

أشـــوقًــا ولـمَّــا تَمْضِ بى غَـيْــرُ ليلة
فكيفَ إذَا خَبَّ المَطِىُّ بنَا عَشْـــرًا؟

قال ومدَّ يدين إلى يدين والتقت عينان بعينين:

- بالله أعيدى يا نوار، فقد وقعتِ على ما كان يهجس فى نفسى ولا تلفظه شفتاى!

واختلجت يداه فى يديها، فدفعهما إلى كتفيها ومال عليها بوجهه؛ فأفلتت من بين يديه وهي تقول مؤنبة:

- وكنت حريًا أن تُنشد:

قــــومٌ إذا حـــــارَبوا شَـــــدُّوا مـــــازِرَهُـمْ

دونَ النِّسَـــــــاء ولـو باتـت بأطـهـــــار!

ووثبتْ إلى الدار وخلَّفته فى الفناء مبسوط اليدين قد ذُهل عما حوله من الزمان والمكان والناس؛ ثم ترامى على بعض ما ازدحم فى الفناء من المتاع وأخفى وجهه فى راحتيه!

الناس جميعًا فى شُغل بالتهيُّؤ لتلك الحملة العظيمة التى يجهزها له مسلمة. كل ذى قوة من شباب العرب يرجو أن يكون له شأن فى هذه المعركة... إن أبا الأنصارى يدعو ضيفانه إلى المأدبة العظمى في رحاب قيصر!

القصَّاص فى مساجد الأمصار قد تأطَّر الناسُ حولهم حلقات حلقات يستمعون إلى قصصهم مَشُوقين يودّ كل منهم أن يطيرَ إلى الميدان بجناحين..

الشباب والكهول يهيئون أنفسهم لرحلة طويلة المدى بعيدة الأمد، قد احتقبوا ما قدروا عليه من زاد وعتاد وكسوة تصلح للشتاء والصيف . .

نساء الأمراء والسادة ينفضن الطيب والحليّ عن غدائرهن بجعلها في بيت المال أعطيات للجمد . .

الزوجات والأخوات يغزلن وينسجن ويخبزن ويقددن ليهيئن لأزواجهن وإخوتهن كسوة ثقيلة وغذاء طيبًا يدفع عنهم برد الشمال القارس . .

الأمـــهـــات يصلين ويدعـــون ويصنعن لأولادهن الرقَى والتمائم! الكواعبُ الحسناوات -وغير الحسناوات- قد خَط الدمع على وجناتهن خطوطًا لم تزل مبتلة أبدًا .

الصبيان والبنات في فرح ومسرة بما يرون حولهم من مظاهر النشـاط، لا يكادون يدرون بما ينتظرهم من أيام القلق والهم والوحشة . .

الأيامى والأرامل يبكين أزواجـهن كـأن قـد فـقـدنهن منذ هنيهات .

الشـيـوخ قـد ردهـم مـا يرون ومـا يـسـمـعـون إلى الـصـبـا وذكرياته، فانطلقت ألسنتهم بالحديث عما خاضوا من المعارك المظفرة في الأيام الخالية وما أبلوا في الجهاد وما حَصلوا من الغنائم وما حازوا من السبايا .

البادية الرَّحَبة قد ازدحمت بالخلائق وانتشرت فيها خيام الجند فضجت وعجت؛ ففي كل خيمة حديث بين اثنين أو بين جماعة، وما تزال أصداء الأغاني تتناوح بين المضارب تعبِّر عن ألوان من الإشفاق والرهبة، أو من الشوق واللهفة، أو من العزم والفُتُوَّة.

هذا فتى لم ينسَ آخر لياليه في الحاضرة، يُنشد حَرَّان الفؤاد:

بنفسيَ من لو مَرَّ بَرْدُ بنانه
على كَبِدي كانتْ شفاءَ أناملُهَ
ومَن هابَني في كلٍّ شيء وهِبْتُهُ
فلا هو يُعطيني ولا أنا سائلُه!

وذاك فتى آخر يستقبل أول أيام الفراق باللوعة، فيغنِّي:

يطولُ اليومُ لا ألقاكَ فيه
ويومٌ نلتقي فيه قصيرُ
وقالوا لا يَضيركَ نأيُ شهرٍ
فقلت لصاحبيَّ فما يَضِير؟

وثالث يتهيَّأ للغارة قبل إبان الغارة، فينشد:

وإنَّا لَتُضبِحُ أسيافُنا
إذا ما اصطحبنَ يومٍ سَفُوكِ
منا بُرهُنَّ بطونُ الأكفْ
وأعمادُهُنَّ رءوس الملوكِ

ورابع قد خرج للغنيمة والتماس أسباب الخفض والدَّعة، قد خلّف من أجل ذلك أهلَه وجيرانه، فيقول:

لا يَمْنَعَنَّكَ خَفْض العيش في دَعَةِ
نُزُوعُ نفسٍ إلى أهل وأوطانِ
تلقى بكلُ بلادٍ إن حللتَ بها
أهلاً بأهل وجيرانًا بجيرانِ

وآخر يُجاذبه هواه وتصطرع الهواجسُ في نفسه بين ما خلّف من النعيم وما يستقبل من المشقَّة، فيجذم حباله[1] ويمضي إلى ما اعتزم منشداً:

... جذَّام حب الهوى ماضٍ إذا جَفَلَتْ
هواجسُ الهمّ بعدَ النومِ تعتكِرُ

(١) يقطع علاقاته.

ومـــــا تَجَـــــهَـــــمَنى لَيلٌ ولا بَلَدٌ

ولاتكاءَدَنى عن حـــاجَـــتى سَـــفَـــرا

والسفائنُ مُرْسية فى الثغور تتأهّب للإقلاع، عليها الجند والعتادَ والمتاع والزاد، قد اختلطت فوقها الأحاديث وتنوّعت الأماني واصطرعت العواطف؛ فعلى ظهر البحر كما فى البادية، مفارق حرَّان الفؤاد، ومشوق في أول أيام البعاد. وثالث يهيئ سيفه وتُرسه للدفاع والغارة، ورابع يحلُم بالغنيمة قبل أن يخوض غمار المعركة، وخامس وسادس، وفنون شتى من الخَلق، قد توزّعت نفوسهم الهواجسُ ولكن أمانيهم جميعًا تلتقى عند غاية واحدة، هى الظفر بالروم فى المعركة واقتحامُ مدينة قيصر!

وأذن المؤذن بالرحيل، فتحركت الكتائب فى البر وأقلعت السفائن فى البحر؛ وكانت قيادة الجيش لمسلمة بن عبد الملك..

وصحب الخليفة جيشه حتى بلغ أطراف الشام، فأقام ينتظر بِمَرْجِ دابق -على عدّة مراحل من حلب- واستأنف الموكبُ سيره..

□□□

[١٤]

على شاطئ البرزخ

قال الفتى الرومى لصاحبه وهما جالسان على رأس الحصن المشرف على مضيق كليبولى :

- هل علمت يا لوكاس ما أعد العرب من عدة لحربنا فى البر والبحر؟

- ومن أين لى العلم بذلك يا موريس؟ وماذا يجدى علىَّ أن أعلم وإنى وإياك هنا فى وجه الغارة الأولى ، ليس معنا قوة تغنى غناء أو تدفع بلاء!

- لقد جاء العرب يا لوكاس فى ثمانمائة وألف سفينة ، على كل سفينة مائة جندى؛ وزحفت على البر قوات تفوق الحصر ؛ فهل يطمع قومنا فى النصر وليس على فم الخليج إلا بضع مئات من الجند فى بضعة حصون على الشاطئين؟

- وإنهم يا موريس لعماليق أشداء ، قد تحصنوا من الموت بما

لا أدرى من التمائم ؛ فإن الرجل منهم ليخوض المعركة قد حطم غمد سيفه وألقى ترسه، فما يزال يخلى الطريق لنفسه بما يجندل من الأبطال حواليه حتى يبلغ حيث أراد، لا يعنيه حين يبلغ أسلمت نفسه أم جاءه أجله حيث بلغ!

- وإن لهم يا أخى إلى ذلك صيحات مفزعة يهتفون فيه باسم ذلك الشيخ الذى اتخذوا له قبراً تحت سور القسطنطينية منذ خمسين سنة، فما يزالوان يفدون إلى قبره ذاك كل صائفة يتبركون به ويعاهدونه عهداً.

- قد كان ذلك القبر شؤمًا علينا منذ ثوى فيه شيخهم ذاك، فهم ما يزالون يطوقوننا من يومئذ فيصيبون منا فى ذهابهم إليه وفى عودتهم منه، ولا أدرى كيف لم يهدم قيصر هذا القبر ويعفى أثره حتى لا يظل هدفًا يطئون بلادنا فى الطريق إليه ذهابًا وجيئة!

- قد همَّ بذلك قسطنطين بوغانات ثم أمسك، فقد جاءه الوعيد من ملك العرب أنه إن فعله استباح العرب مثل ذلك فى بلادهم، فلا يتركون لنا ثمة بيعة ولا صومعة إلا هدموها!

- ولكن ما ينالنا من غارة الطراق أسوأ أثرًا فينا مما أوعد به ملك العرب، فقد انحسرت النصرانية عن بلاد العرب فلم يبقَ ثمة إلا فلول لا تساوى ما نتعرض له من الشر ببقاء ذلك القبر!

- أفلست تعلم يا لوكاس أن دفين ذلك القبر من أصحاب نبيهم، وأن له عندهم مقامًا قد يحمل على الشر الفظيع أن يناله أحد بمهانة!

- وأى شر أفظع مما ينالنا منهم يا موريس، صائفين وشاتين؟

- أنت لا تعرف العرب يا لوكاس!

- تعرفهم أنت يا موريس؟

- قد عرفت من أخبارهم ما لو عرفته لكففت!

- أتراهم مردة يقذفون من أفواههم اللهب المحرق، ويحركون العاصفة الجائحة، ويقتحمون الأسوار بغير أجنحة!

- أراك تسخر يا لوكاس، فهل سمعت عن بشر يفطر بحمل، ويتغدى بجمل، ويتفكه بمائة رمانة، فإذا قام من قيلولته دعا بطعام العصر؟

- بل أنت الذى يسخر يا موريس!

- ذاك والله ملكهم الذى سير إلينا هذه الجحافل بقيادة أخيه!

- ما أحراهم بأن يأكلوا إذن؟

- إنهم لا يأكلون لحوم الموتى!

- يموتون إذن تحت أسوار القسطنطينية جوعًا، فليس هنا ما يكفيهم من الطعام إذا أرادوا حصار المدينة.

- أرأيت الجاموس الأسود؟

- أى جاموس؟

- نوع من الحيوان كالفيلة، لا يقطع السكين فى جلده، يطأ بحافره، وينطح بقرن، وينظر بعينين ليس فيهما بياض، وما يزال يجتر كالمعزى..

- وما أنا وذاك؟

- لقد جلبوا منه آلافًا فسمنوها فى مروج الشام، ثم ساقوها معهم إلى الميدان!

- يريدون أن يحاربونا بالجاموس؟

- لست أمزح يا لوكاس!

- فماذا إذن؟

- يتخذون من لحومها وألبانها طعامًا!

- ومن أين لهم هذا الجاموس؟

- جلبوه من الهند!

- وأين هم من الهند؟

- إن الهند قد صارت منذ بعيد -يا أبله- تحت حكم العرب!

- قد غلب العرب إذن يا موريس وملكوا حاضرة قسطنطين!

- أراك قد انهزمت من أول جولة يا لوكس!

- وماذا تجدى المقاومة؟

- لو كان العرب يحاربوننا بهذه الروح ما انتصروا قط فى معركة!

- تريد أن أقاوم بلا رجاء؟

- نعم، حتى تموت!

- ويكتب فى لوح على قبرى: مات منتصراً؟

- ليس ذلك هو كل شىء، إن الحياة المجيدة لا توهب للجبناء!

- لست جبانًا!

- معذرة.. لم أقصد إساءتك!

- فما قصدت إذن؟

- إن الذى يكافح عن حقه حتى يموت، يهب حياة لكثيرين من ورائه؛ لأن كل طعنة تناله كانت مسددة إلى

واحد ممن خلقه؛ فلقى عدة طعنات عن عدة أحياء ومات موتة واحدة؛ فقد ربحت صفقته إذن!

- وما النتيجة؟

- أراك لم تفهم بعد!

- ولا أظن أحدًا يفهم أن الموت صفقة رابحة!

- زن حياتك بحياة الجماعة!

- وهل ترى الجماعة تستطيع أن تردنى إلى الحياة إذا فاضت نفسى؟

- ولكنك باستماتتك تستطيع أن ترد الجماعة إلى الحياة!

- منطق غير مفهوم!

- ولكنه بعض إيمان العرب!

- حمقى!

- ولكنهم انتصروا بحماقتهم هذه يا لوكاس، وذل الروم!

□□□

[١٥]

تميمة رومية!

لم تكن سبيكة قد نضجت نضج الأنثى ولا رشدت رشد العقل يوم احتملها النعمان سبية، ولكنها إلى ذلك كانت مدركة واعية، فقد علمت منذ اللحظة الأولى أن ذلك آخر العهد بأهلها ووطنها فلن تراهم ولن يروها أبدًا، أليست تعلم علم الناس مما يدور حولهم من أحاديث، أن أختًا لها قد احتملها الغزاة منذ بضع وعشرين سنة فذهبت ولم تعد، قد غاب أثرها وضاع خبرها فلا يكاد يذكرها أحد إلا أبوها المرزأ وأمها الثكلى؛ وكانت أختها إلى ذلك فتاة ناضجة رشيدة تملك أسباب الحيلة!

بلى، وقد مضت بضع وعشرون سنة أخرى منذ احتملت هى إلى بلاد العرب؛ فهل يذكرها اليوم أحد من أهلها؟ . . وإنها لتملك اليوم حريتها، ولكنها لا تحاول أن تعود ولا تريد؛ لقد انقطع ما بينها وبين الماضى فلا تمت إليه بسبب؛ إنها اليوم

امرأة عربية مسلمة تمت إلى هذه الجماعة التى تعيش بينها بأسباب كثيرة، وتربطها إلى ما حولها ومن حولها عواطف شتى؛ أما تلك التى احتملت من بلادها منذ بضع وعشرين سنة فكانت فتاة لا عربية ولا مسلمة ولا أماً . .

ذلك هو شعورها منذ سنين؛ فما بالها ما تزال حينًا بعد حين تفىء إلى ركن من دارها فتفض ختم حقيبتها فتنثر فيها من مخلفات ذلك الماضى تتملاه وتشمه وتمسح به عينيها ثم تبكى ما شاءت؟ . .

وما بالها ما تزال كلما سمعت ناعيًا ينعى حبيبًا إلى أهله رفرفت بجناح وجاوزت المكان والزمان إلى حيث كانت تعيش فى بلد بعيد بين إخوتها وأخواتها، تريد أن تحصيهم عدًا وتتصفحهم فردًا فردًا؟

وما بالها ما تزال تستطلع طلع كل قادم من سفر، وكل عائد من غزاة، وكل مبحر فى صائفة؟

وما بالها -مع ذلك- قد طابت نفسًا بخروج ولدها لحرب الروم؟

وما بالها قد شحذت له أمضى سيوف أبيه حدًا وأومضها صفحة؟

وما بالها قد رضيت له نوار زوجًا يمهرها رأس بطريق من

بطارقة الروم؟

ثم ما بالها قد دفعت إليه حين مسيره تلك التميمة التي كانت قلادة صدرها صبية؛ ليحرزها فتحرزه.. وتلك الجوهرة التي كانت زينة مفرقها طفلة؛ ليذكرها بها وتذكره؟..

أبوعي دفعت إليه ذينك الأثرين، أم دفعتهما بلا وعي ولا إرادة؟

وكيف تحرز مسلمًا تميمة رومي لا يؤمن بدين محمد ﷺ؟

وكيف تذكره إياها جوهرة لم يرها في مفرقها قط؟

أما تزال نفسها تنازعها إلى دين ووطن غير هذين الدين والوطن؟

***

وعَبَر على الطريق -وهي في خلوتها تلك إلى أشجانها- حاد ينشد:

تَعَزَّ بصبرٍ، لا وَجَدِّكَ لاتَرَى
سَنَامَ الحِمى أخرى الليالي الغوابرِ
كأنَّ فؤادي مِن تَذَكُّرِ الحِمى
وأهلَ الحِمى، يَهْفو به ريشُ طائرِ؟

فهتفتْ بلا وعى :

- رُدُّوه عَلَىّ!

ثم أخفت وجهها فى راحتيها وأجهشت باكية؟

وكان عتيبة فى تلك اللحظة خاليًا بنفسه كذلك فى خيمة من خيام الجند، يُقلب بين يديه قلادة وجوهرة، ولكنه لا يذكر من أمر صاحبتهما شيئًا، فقد كان خياله مفعمًا بصورة أخرى قد ملكت عليه حسَّه نفسه وفاضت معانيها شعراً على لسانه ودموعًا فى عينيه . .

أتُرى نوار تذكره الساعة كما يذكرها؛ وهل يعود إليها كما أملت، قد حصل لها مهرًا وأدرك ثأرًا ووفى بنذر، فيضع بين يديها تاج بطريق وسلبه ويسألها الوفاء بما وعدت؟

ولم يجد عتيبة جوابًا سريعًا لسؤاله، فقد مثل بباب الخيمة فى تلك اللحظة حرسى من حاشية مسلمة يدعوه إلى لقاء الأمير؛ وأعجله الطلب عن حفظ ما كان فى يده من خرزات أمه، فمضى إلى لقاء الأمير وما تزال فى يده .

وهش الأمير للقائه وبسط له وجهه ومجلسه، وغدا عليه يسأله عن حاله وخبره وأهله؛ وأقبل عليه الفتى يجيبه عما يسأل منبسطًا غير متكلف، ويده تعبث بما استند إليه من الطنافس المثمنة فى مجلس الأمير؛ وأفلت شىء كان فى يده

فتدحرج على البساط، فأدركه فى حركة سريعة قبل أن يبعد. .

قال الأمير متلطفًا :

- ما هذا فى يدك يا عتيبة؟

- خرزة دفعتها إلىَّ أمى، ترجو أن تكون لى تميمة وحرزًا. .

ومد إليه الأمير يدًا فحاز القلادة والجوهرة بروزهما بأصابعه لمسًا[1] وبوجهه نظرًا وشمًا؛ ثم دفعهما إلى الفتى وهو يقول فى صوت ينم على انفعال :

-أحرزهما يا عتيبة واحرص عليهما، فإنهما بعض آثار أم بَرَّة!

ثم أنغض الأمير رأسه وتزاحمت على عينيه صور شتى. .

ولم يطل بالفتى مجلسه؛ فنهض إلى خيمته والأمير يشيعه بعينين فيهما إشفاق وحب ورحمة!

□□□

(١) يختبرهما بأصابعه.

[١٦]

عرش يهتز..

التقت قوات الغزو البرية والبحرية على جانبى مضيق كليبولى، ثم لم يلبث الجند أن وثبوا من شاطئ إلى شاطئ فإذا هم تحت أسوار القسطنطينية، لم يلقوا كيداً ولم يعترض سبيلهم أحد، فحطوا رحالهم فى ذلك الوادى الأفيح، وأخذوا يقيمون المضارب وينصبون الخيام ويعدون لإقامة طويلة المدى، قد أقسموا لا يعودون إلى أهليهم وديارهم إلا إذا فتحوها ووطئوا بساط قيصر وأذنوا فى «أيا صوفيا» وأقاموا الصلاة..

ونصبت للأمير خيمة فى ديباج على شرف من الأرض وبُسطت فيها البسط وانتشرت الطنافس، ثم أقيمت مضارب الجند حيث رسم الأمير.

***

وقال مسلمة يخاطب جنده :

«أما بعد، حمدًا لله والصلاة على نبيه، فإنا لم نقطع هذه البرية ونتجشم هول ذلك البحر من أجل غارة نغيرها ثم نؤوب قد احتملنا أسارى وسبايا وحصلنا غنائم وتركنا على أديمها صرعَى وجرحى من الروم، كما كنا وكانوا في كل صائفة وشاتية، فقد كان ذلك كله تمهيدًا لهذه الغارة العظمى، لتحطيم عرش قيصر ودك معاقله ونشر كلمة الله في بلاده؛ فلا معاد إلى دياركم وأهليكم إلى أن يفتح لكم، وإلا فاعتقدوها هجرة إلى دار أبي أيوب لا تبرحونها حتى يبعث الله الموتى[1]!

«الفتح أو الشهادة، لا غاية وراءهما؛ فهيئوا أنفسكم لإحدى الغايتين لاتنازع أحدكم نفسه إلى أهله وزوجه وماله، أو يحن حنين النيب إلى أعطانها[2]؛ فلا وطن لكم إلا ما أنتم فيه، فاتخذوه مقامًا حتى يأذن الله بالفتح! . .

«ألا وإن الروم قد حصنوا أسوارهم وملسوها وطاولُوا بها حتى لا مطمع لناقب أو متسلق أو واثب! فلتَدعوهم سجناء وراء أسوارهم هذه لا يدخل إليهم داخل ولا يخرج منهم

(١) يعني أنهم إما أن يفتحوها أو يموتوا فتجاور قبورهم قبر أبي أيوب!
(٢) النيب : الإبل . وأعطانها : مواطنها .

خارج ؛ حتى ينفد الزاد والعتاد ويبلغ منهم الجهد فيطلبوا السلامة ويلقوا السلاح ويفتح لكم!

«ألا وإن مُقامكم على هذا سيطول حتى ينفد ما عندهم من ذخر؛ فلا يمسس أحد منكم طعامًا أتى به من هنالك؛ والتمسوا الرزق مما يليكم من هذه القرى الرومية، ودونكم الأرض فاحرثوا وابذروا وأثمروا؛ وقد جلبت لكم قطعانًا من الجاموس والإبل والضأن للحرث واللبن واللحم ودفء الشتاء. ولا تطل إقامتكم فى هذه الخيام حتى يفجأكم البرج ويسد عليكم أبوابها، فدونكم هذه الغابات فاقتطعوا من أشجارها واتخذوا بيوتًا من خشب تجعلون فيها متاعكم وتأوون إليها، واحتفروا العيون واستنبطوا الآبار تروون منها وتسقون الزرع والضرع..

«أيها العرب، إن أظفر الطائفتين فى هذه المعركة أصبرهما؛ فلاعليكم من طول المقام ما ضمنتم الظفر فى العاقبة!».

«أيها المهاجرون إلى الله، لقد خلفتم طائعين دياركم وأهليكم وأزواجكم وأولادكم إلى مدينة أبى أيوب، فتربصوا فى دار هجرتكم هذه بعدوكم وعدو الله حتى يأذن لكم أن تلقوه بيوم كيوم بدر!».

****

وتفـرّق جند العـرب فى الأرض الفـيـحـاء على اسـتـدارة القـوس من أسـوار القـسطنطينيـة، قد اتـخذوا بيـوتًا، وفلحـوا أرضًـا، واسـتنبطوا آبارًا، واسـتنبـتـوا مـراعى، وأنشـئـوا حظائر، واستوطنوا استيطان من لايفكر فى الرحيل!

وكانت غاراتهم ما تزال تبغت القرى الرومية على الشاطئين فيصيبون مغانم ويعودون إلى بيوتها ظافرين قد أضافوا إلى ما ادخروا من الزاد والعتاد ذخرًا جديدًا، وزاد العدو جهدًا على جهد!

ومضى عام وجيش مسلمة لم يزل يحاصر القسطنطينية، حتى جهدت جهدًا شديدًا وأوشكت أسواقها أن تقفر من الطعام وضاق أهلها بالحياة . .

وبلغت الحال فى بلاد الروم من الفوضى والاختلال مبلغًا حمل القيصر أنسطاثيوس على اعتزال الملك لينقطع للدعاء والعبادة راهبًا فى دير. وخلا عرش القسطنطينية من قيصر، فراح الأمراء والبطارقة وقادة الجند يتواثبون كالضفدع حول العرش، يأمل كل منهم بلا كفاية أن يكون قيصرًا . . .

وكان إليون المرعشى «الإيزورى» رأس الفتنة؛ وهو رجل من غثاء الناس[1] ليس له جذر يمت به؛ كان أبوه إسكافًا

---

(١) من عامة الناس.

بصنع النعال، فنشأ كما ينشأ ابن كل إسكاف؛ ثم اتجر فى الماشية فأثرى وجمع مالاً، ثم اصطنع كما يصطنع الأثرياء بطانة وحاشية، ثم رأى اختلال الأمر فى الدولة فحبب إليه أن يكون قيصراً، فاتخذ كل وسيلة إلى ما يُحب. .

ولم يكن له مطمع فى رضا قومه من الروم رضاءً يحملهم على أن يصعدوا به إلى العرش، فصار له مطمع فى رضا العرب؛ فأوى إلى سليمان بن عبد الملك وأخيه مسلمة يؤامرهما على تحطيم قوات الدفاع الرومية لتخلص البلاد للعرب وتخلص له رياسة الروم، فاستعانه سليمان ومسلمة على شرطه؛ ووثق به مسلمة فأسلم إليه بعض الأمر!

وبلغ الجهد بأهل القسطنطينية ما بلغ، فاستعانوا بالبلغار والروس وأهل رومية، ولكن هؤلاء كانوا فى شغل بأنفسهم عن معونة غيرهم، وكان مسلمة قد خلف على جيش القسطنطينية بعض قادته ودار دورة على بعض فرق الجيش إلى ملك البلغار فحطم مقاومته وبدد شمله، ثم آب. .

وأخذ الوهن يدبُّ فى قوى الروم، فلم يجدوا بدًا من النزول على شرط العرب؛ فبعثوا إلى مسلمة فى وقف القتال وفك الحصار على أن يؤدوا إليه الجزية؛ ولكن مسلمة أبى، فبعثوا إليه ثانية يطلبون أن يوفد إليهم إليون الرومى ليفاوضوه فى شروط التسليم؛ فأجابهم إلى ما طلبوا.

«ما أجدر هذا الرومىّ أن يهديه الله فيكون أخًا معينًا ووزيرًا ناصحًا!» كذلك قال مسلمة لنفسه وقد أوفد إليون إلى قومه ليفاوضهم فى شروط التسليم؛ فبمعونة هذا الرومى يقرع مسلمة أبواب القسطنطينية. ويوشك أن يدخلها غدًا، فبطأ بلاط قيصر، فجلس على عرش قسطنطين فيجهر بالأذان على أسوارها المنيعة، فيؤم جنده فى الصلاة بأيا صوفيا، فينشر كلمة الله من ثمة فى الأرض الكبيرة، فيمضى قدمًا حتى يطأ رومية، ويقف على شاطئ الأقيانوس الأخضر مثل موقف عقبة بن نافع منذ سنين.

«إن فى الروم لذوى أعراق طيبة وإن كان آباؤهم من ذوى المهنة!».

ردد مسلمة هذه العبارة كذلك فيما بينه وبين نفسه؛ وكأنما ذكر فى هذه اللحظة أمه ورد ونسبها فى بلاد الروم، فحن عِرق إلى عرق!

واسترسل إليون فى محادثاته مع القوم، وطالت غيبته؛ واسترسل مسلمة فى أوهامه. وكان الجند فى مضاربهم، أو فى بيوتهم، يُديرون بينهم ألوانًا من الحديث يتصل أكثرها من قريب أو من بعيد بهذه السفارة التى دعا إليها الروم وخف إليها إليون وهش لها مسلمة.

قال ابن جبير العبسى مغتبطًا :

- أين نحن اليوم؟ وأين نكون غداً؟

قال ابن هبيرة :

-وأين نكون إلا وراء مسلمة؟

قال العبسى :

- فذلك ما أردت يا ابن هُبيرة!

- اسكت! فوالله ما تعلمُ ولا يعلمُ مْسلمةُ ما يُخبئه له ولكم الغد!

- وتعلمُ أنت علم الغد يا ابن هبيرة ولا يعلمه مسلمة؟

- قد كان له ذلك لو كان ابن حُرَّة!

هبَّ عتيبة بن النعمان واقفًا قد اخترط سيفه وهو يصيح :

- أمْسك عليك يا ابن هبيرة؛ فإنه لأعرق نسبًا وأعلى أرومة من كل بنَى مروان. فإلا تكن أمه من عبس ومخزوم وأمية فإنها إلى الذروة من بنى الأصفر!

قال ابن هبيرة ولم يتحلحل عن موضعه :

- هوّن عليك يا ابنَ أخى، فإنك لتقفُ منى موقفًا يستحيى منه أبوك -غفر الله له!- وما أردت أن أتنقص مسلمة، ولكنى

أعيب عليه أن يركن إلى رجل من أهل الغدر والنفاق قد باع أمته للعدو ، فما أجدره أن يغدر بنا كما غدر بقومه!

-وترى ذلك يغيب عن فطنة مسلمة؟

- إن لكل فطن غفلة تأتيه من قبل أبيه أو من قبل أمه ، قد تدسست فى العرق وخالطت الدم، وقد كان عبد الملك حازمًا أريبًا . . فذلك ما عنيت يا ابن النعمان!

- ومن أين لك أن مسلمة قد غَفَل عما فَطَنْتَ له؟

- لقد أتيتُه أحدثُه عن ذلك ، فإذا هو قد تَغَدّى وملأ بطنه ونام . . . وجلست إليه أحدّثه فما أراه قد سمع شيئًا مما قلتُ أو دَرَى بى!

- أفلستَ تعيب عليه يا ابن هبيرة إلا أنه قد أكل ونام؟

- إن الأحمق يا ابن أخ مَنْ يملأ بطنَه من كل شىء يجدُه ، وأحمق منه من ينام والحوادثُ ترقُبه بعيون يقظة!

- غدًا ترى عاقبةَ أمره وأمرك يا ابن هبيرة!

- إن كان وعيدًا يا ابن النعمان فقد والله جاوزتَ قدرك ، وإن كان أملاً تأملُه فإنى والله لأرجو مثلَ ما ترجوه على حَذَرٍ وتخوف!

- ومِمَّ تَحْذَر؟

- تدبير ذلك الكلب إليون، فما أظنُّه الساعة إلا يؤامرُ الرومَ على الكيد لمسلمة وقد ملأ مسلمةُ بطنه ونام!

❊❊❊

ويرجع إليون إلى مسلمة يَعرض عليه ما انتهت إليه محادثاته، قال:

- إن الروم أمةٌ محاربةٌ -يا أميرُ- منذ التاريخ البعيد، لم تضَع سيفَها قط منذ كانت ولا رَضيَت الدَّنيَّة، وقد أدال الله لكم منها فغلبتم خلفاء قسطنطين على أرضهم وديارهم ورعاياهم في سائر فجاج الأرض، ثم جئتم تطلبون هذه الحاضرة فكأن قد دانتْ لكم كما دانت الممالك وأسلمت مفاتيحها، فقد بلغ منهم الجَهْدُ ما رأيتُ بعيني وما لا أظنه قد غاب عن فطنة الأمير، فلولا أنهم أهلُ مُصابرة لأسلموا إليكم منذ بعيد، ولكن عيونَهم ما تزال تطلع عليكم حينًا بعد حين فيرون ضخامة ما اختزنتم من الزاد والعتاد وما لا يزال يردُ إليكم من ذلك؛ فيقولون: لولا أنكم ترون أجل الفتح بعيدًا وأن دونه مصاعب وأهوالاً لما أسرفتم فيما تجمعون من هذه الأقوات، وإنهم إلى ذلك ليخشون -لو أسْلَموا إليكم- أن يقع عليهم حَيفٌ في المعاملة كما يصفُ لهم بعض رواة الأخبار من فلول المنهزمين أمام جحافل العرب في الأمصار المَفتوحة!

–وبم يرجف هؤلاء يا إليون؟

– يزعمون أن العرب لم يدخلوا أبدًا –عنوة أو صلحًا– إلا استرقوا الرجال واستبوا النساء وهتكوا الستور، واستولوا على النفائس وأذلوا السادة واحتملوا كل ما فى البلد من قُوت وزاد فلا يجد أهله ما يحفظ عليهم أرماقهم!

– وترانا كما يصفون يا إليون؟

– إن العرب –ما علمتُ– لأهل وفاء وذمَّة وشرف ودين!

– فماذا يَرون إذن؟ وماذا ترى أنت؟

– أرى الثمرة قد دانت وحان قطافها، ولكنكم إن تدخلوا القسطنطينية بالقهر والغلبة لا تجدوا فيها من السلام والطمأنينة ما يحبب إليكم الإقامة، فهلا دخلتم أصدقاء قد أمنوا وأمنتم وطابوا نفوسًا وطبتم؟

– وأين لنا ذلك؟

– أن تحملوهم بديًا على اليقين بأن المدينة طوع أيديكم، فتخففوا من هذا الزاد الذى جمعتموه ركامًا بعضه فوق بعض يوهم من يراه أنكم على نية إقامة طويلة عجزًا عن اقتحام المدينة، فإنهم إن رأوا هذا الزاد قد أزيل عن موضعه أيقنوا أنكم قد أزمعتم الرحيل، فتخورُ عزائمهم ويفتحون الأبواب!

وأخرى أيها الأمير : أن يكون تخففكم من هذا الزاد بابًا إلى اكتساب مودتهم واطمئنانهم إليكم، فتهبوا لهم منه ما يدفع عنهم الجوع ويحفظ عليهم الرمق، فإنهم حقيقيون بأن يحفظوا لكم هذه اليد فيشكروها لكم، فتدخلوا المدينة حين تدخلونها قد أمنوا وأمنتم وطابت نفوسهم وطبتم!

- وآمرتهم على كل ذلك يا إليون؟

- ووافقوني على كل ما عرضت عليهم باسمك من شروط التسليم، وآية بيننا أن ينبئهم أصحاب الأخبار أنكم قد تخففتم من الأزواد أو جدتم عليهم ببعضها!

- لك ما اشترطتَ يا إليون. . فاحمل إليهم ما شئت ودعني وأصحابي نعد العدة للنقلة إلى ما وراء هذه الأسوار!

□□□

[١٧]

دسيسة العرق..

- والله لا يقع في مثل هذه الغفلة ابن حرة!

كذلك قال ابن هبيرة قبل أن تقع الواقعة ونرى أنفسنا في هذا الفقر لا زاد لنا وقد أخذتنا سيوف الروم من كل جانب!

- ذلك الكلبُ الغادر إليون . .

- بل قل: ذلك الأبلهُ ابن ورد؛ لقد خَدَعه ذلك الكافر خديعةً لو كان امرأةً لَعيب بها!

- ونال بها إليون عرشَ قسطنطين!

- ونلنا بها ما نلنا من الهوان والضعف والمَذلَّة؛ وما أرانا غدًا إلا هالكين جوعًا وبَردًا في هذه القفرة المثلوجة؟

- واأسفا! لقد كان مسلمة -فيما أرى- أسدَّ بني مروان رأيًا وأخبرهم بفنون الحرب!

- وما هى الحرب إلا السياسةُ والتدبير ونَصْبُ الفِخَاخ وتَوَقِّى المهالك؟

- وإنه لكذلك، لولا ما تَدَسَّس إليه أمه الرومية، فكأنما حنَّ العِرقُ إلى العرق فاستنام إلى وعد غادر!

-أتذكر حين أنشد عبدُ الملك بين يدى مسلمة وإخوته فى حلبة السباق ذات غدوة:

نهيتكم أن تحملوا فوق خيلِكم هجينًا . . . . ؟

- نعم وقد تناقلها الناسُ يومئذٍ وقالوا: ما أنصف عبد الملك مسلمة!

- كأنما كان عبد الملك يرى بظهر الغيب ما نحن فيه اليوم؟

- وقد أخذه سُعار الغيظ مما ناله، فلم يأذن بالرحيل وتسريح الجند، كأنما خُيل إليه -بعدما كان- أنه مستطيعٌ فى هذه الغزاة أن يفتحها!

- بجند قد هزلوا من الجوع، وارتجفوا من البرد، وأثخنوا من الرمى!

قد أبرد بريدًا إلى سليمان بمرج دابق يطلب مددًا من زاد وعتاد!

- وحتى يبلغ البريد ويجىء المدد يصير العرب على الجوع والبرد تحت هذه الأسوار التى لم تزل تُساقط عليهم النيران وتريش إليهم السهام؟

- أظننت أن نفتح القسطنطينية بلا جهد؟

- فقد بذلنا من الجهد ما لا قدرة عليه لبشر حتى دانت الثمرة، ثم أفلتها مسلمة بحُمقه!

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك ما يزال منذ عام وعام قبله مُرابطًا ببرج دابق على الطريق إلى بلاد الروم، قد أقسم لا يبرحها إلى حاضرته حتى يأتيه بشير الفتح أو يدركَه الأجل.

وكان البريدُ يتوالى عليه يومًا بعد يوم بما بلغ العربُ من أسباب النصر وما نال الروم من الجهد والإعياء، حتى خُيل إليه أن ليس بينه وبين ما أراد إلا غلوة سهم، وأنه لولا حرصُ مسلمة على دماء المسلمين أن تراقَ لاقتحمها بخيله ورجله ووطىء بساط قيصر منذ بعيد..!

ثم جاء النبأ بما آل إليه الأمر وما بلغ الروم من العرب بالمكر والخديعة، فحوقل واسترجع وامتلأت نفسه همًا، ولكنه لم ينكص على عقبيه وأصر على أن يبر قسمه ذاك، فحشد الحشود وكتب الكتائب وجمع الأزواد وأعد العتاد، وسيَّر ذلك كله إلى مسلمة..

وكان الجوعُ والبرد قد أضراً بالعرب ضرراً بليغًا، حتى التمسوا أقواتهم من ورق الشجر وعشب البرية ودواب البحر، ولولا أن تراب الأرض لا يُستساغ لسفوه سفًا ليردوا الجزع عن أنفسهم ويحفظوا أرماقهم!

وكأنما شحذت هذه الخيبة عزيمة مسلمة، فصابر ورابط وقاوم كل ما يكتنفه ويكتنف أصحابه من الشدة، فلم يفك الحصار عن المدينة!

وكان أصحابه يموتون كل يوم مئات، صرعى الجوع والبرد منهم أكثر من صرعى السيوف والسهام والنار الرومية[1]، ولكن مسلمة لم ينكل... وما يزال أصحابه يطيعونه والموت يتخطف إخوانهم من حولهم جماعات يبلغون الآلاف، والمددُ الذى أرسله سليمان ما يزال فى الطريق!

❊❊❊

وكان سليمان مما نال مسلمة فى هم دائم بالليل والنهار؛ وزاده همًا أن ولده أيوب الذى كان يُرجيه لولاية عهده قد احتضَرهُ الموتُ شابًا فى ريعانه؛ فبكى سليمان وقال: الآن لا يدعون أيوب ولا أبا أيوب؟

---

(١) النار الرومية: قذائف من النفط تلقى مشتعلة من فوق الأسوار على الجند الذين يحاصرون المدينة.

ثم لم يلبث أن لزم فراشه فى ريعانه ودب إليه الموت!

وكان عهده . . بعد ولده أيوب- إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان . .

***

وقال الخليفة عمر وقد جلس فى ديوانه :

- ردوا على الشام هذه الفلول المبعثرة فى البر والبحر من جيش مسلمة ؛ إن لتلك المدينة موعدًا لم يحن بعد ؛ وإنى لأخاف أن يأتى الجوع والبرد عليهم جميعًا فتكون جريرتها على رأس عمر!

وخب البريد إلى مسلمة بالنبأ ، وسيقت إليه الركائب فى البر والبحر لتحمل من معه إلى الشام .

[١٨]

على حافة الموت

- أكذلك تكون عاقبتها؟

قالها مسلمة وأطرق وقد امتلأ قلبه غمًا وحقدًا ومرارة أما الغمُّ فلهذه العاقبة التى انتهت إليه الغزوة العظمى التى كان يهيىء لها منذ سنين، ليبلغ شأنًا لم يبلغ مثله واحد من بنى عبد الملك؛ وأما الحقد فعلى هؤلاء الروم وقيصرهم ذاك الخسيس الذى أذله بالمكر والخديعة، وخذله حين أمِنَ له ووثق من مودته؛ وأما المرارةُ فلأنه ابن امرأة من هذه الروم الغادرة التى لا تحفظ عهدًا ولا تفى بذمة. . لو كان له أن ينتسب إلى أم غيرها لأنكر أنها أمه، تلك التى باعدت بينه وبين العرش شابًا، وحطمت تاج العز على رأسه كهلاً، وتوشك أن تجعل حديثه فى هذه الغزاة سخرية الساخرين حتى يبلغ سن الموت!

ومد يدًا إلى جيبه فأخرج جوهرة وقلادة؛ فتملأهما طويلاً ثم قذفهما إلى البحر وهو يقول وقد غلبه الدمع:

- تميمة لم تحفظها صبية من السباء؛ ولم تحرز ولدها كبيرًا من الهزيمة!

ثم أطبق راحتيه على وجهه وبكى!

وثاب إلى نفسه بعد هنيهات، فدعا حاجبه إليه وقال له:

- قدم أسارى الروم إلى السيف!

وبسطت الأنطاع[1]، وقام على رأس كل أسير حرسى بسيفه وأخذت الرءوس تتهاوى عن أجسادها، ومسلمة يشهد قد اشتفت نفسه مما تجد..

وقدم إلى السيف شيخ حطمة قد بلغ الثمانين أو قاربها، وهم الجلاد أن يرمى رأسه حيث رفع الشيخ يده قائلاً:

- كف! إن لى حديثًا إلى الأمير!

وسيق الشيخ إلى حيث كان مسلمة، فقال:

- يا والدى!

- اخرس! يتم ولدك؟

(١) الأنطاع: فرش تبسط لتقطع عليها رءوس المحكوم عليهم بالموت.

- هل لك فى صفقة رابحة، فتبيعنى رأسى برجلين عربيين؟

- رجلين عربيين؟

-نعم، فى الأسر عندى منذ سنين، ولعلهما من السادة، فإن شئت عفوت عن شيخ حطمة لا يحمل سيفًا ولا يدفع غارة، واستنقذت أسيرين من قومك!

- جئ بهما!

- فيسمح لى الأمير أن أذهب إلى أهلى فأعود بهما!

- تحتال حتى تفر بدمك!

- ليس الغدر من طبعى!

- ولم يكن من طبع إليون القيصر؟

- ذاك ابن إسكاف لا يمت بعرق إلى أسرة نبيلة!

- وتمت أنت إلى قسطنطين الأكبر؟

- ليس الكذب من طبعى!

- أمفاخرة فى هذا المقام يا ابن الغادرة؟

- لم تغدر أمى قط!

- اخرس.. رأسه حرسى!

- يموت العربيان إذن أيها الأمير، وإنى لأظن لهما فى قومهما شأنًا.

أخذ الشيخ يقلب نظره فى وجوه الجند، ثم أشار إلى فتى منهم:

- هذا يكفلنى أيها الأمير!

- تكفله يا عتيبة؟

- قد كفلته!

- تبيع شبابك بهرمه؟ إنه ليخادعك عن نفسه!

- قد كفلته!

هب مسلمة واقفًا قد بان فى وجهه الغضب، ثم مضى إلى خيمته غير متلبث؛ وأحاط العرب بصاحبهم يسألونه مؤنبين مشفقين:

- ما حملك على هذا يا عتيبة؟

- شيخ فى ضائقة، قد توسم فىَّ مروءة، هل أخلف ظنه؟

- ولكن الروم أهل غدر يا عتيبة!

- ما كان يجمل بى غيرها!

- وإذا لم يعد كفيلك يا أبله؟

- يصنع الأمير فى أمرى ما يبدو له..

- ولكن الأمير مغيظ محنق، قد استل غدر الروم ما كان في نفسه من خلال العفو والرحمة!

- يقتلني به إذن!

وتبيع رأسك برأس كافر؟

- قد كان ما لا سبيل إلى الرجوع فيه!

- وتفرَّق الجندُ عن صاحبهم محزونين، وأوَى عتيبة إلى خيمته قد امتلأت نفسه غمًا وضاق بكل ما حوله. هذه أول غزاة يغزوها، ولعلها آخر غزاة، فإن الموت يتربص به، وسيموت حين يموت لا شهيدًا في المعركة ولا مبكيًا عليه؛ وتترقب نوار حتى يعود كل الغزاة ولا يعود عتيبة، فتبكيه دهرًا ثم تسلو؛ وتبكيه أمه كذلك ولكنها لا تسلو أبدًا؛ إن الأمهات لا ينسين من يموت من أبنائهن، قد علم ذلك عن جدته الثكلى، إنها ما تزال تذكر عمَّه عتبة وأباه النعمان كأنما فقدتهما منذ قريب!

ما لهذه الخواطر تتزاحم في رأسه الساعة؟ أميت هو إذن؟ فلماذا رمى بنفسه في هذا المأزق؟ ولكنه لا يكاد يستشعر شيئًا من الندم لشيء مما كان؛ فما كان له خيرة؛ أكان يجمل به أن يقول على ملأ من الجند لذلك الشيخ: دعني فلست من المروءة، بحيث ظننت؟ وإن في الأمر -إلى ذلك- احتمالاً

آخر : أليس ممكنًا أن يكون ذلك الشيخ صادقًا فيما وعد؟ فكيف يحول حب الحياة ولؤم الطبع دون إطلاق أسيرين مسلمين؟ . .

وارتد خاطره إلى أمه، وإلى صاحبته؛ كيف يعود إلى نوار ولم يفِ لها بما وعد؟ يا لها سخرية أليمة! إنه بدل أن يعود إليها برأس بطَريق، قد قدم رأسه فداء لرأس شيخ حطمة لا هو من البطارقة ولا من السوقة؛ أكانت أمه تتوقع أن يصير إلى هذه الخاتمة حين حاولت أن ترده فعصاها؟ لقد وقع عتيبة فى شر أفظع مما كانت تتوقع أمه أن يكون!

ومد يده إلى جيبه فأخرج جوهرة وقلادة، فتملاهما طويلاً، ثم بكى . . أتدفع هذه التميمة عنه شرًا؟ يا لهؤلاء الأمهات! ما أضعفهن قلوبًا وعقولاً!

ومثل بباب الخيمة حرسى يدعوه إلى لقاء الأمير، كشأنه ذات يوم منذ عام وبعض عام، وكانت الجوهرة والقلادة فى مثل مكانهما الآن من يده، ولكنه اليوم غير غافل عنهما . .

- لأى أمر يدعونى الأمير ياحرسى؟

- لا علم لى؟

- أفى خيمته هو أم فى الميدان؟

- فى خيمته!

- وفى خلوة هو أم معه أحد؟

- لا علم لى؟

- تخادعنى عن نفسى يا حرسى؟

- ليس لى مأرب!

- فحدثنى إذن بما تعرف . . .

- لستُ أعرف شيئًا!

- إذن فهو الموت؟

- لا علم لى؟

- وبسيفك أو سيف غيرك؟

- لا سيف لى!

- تبًا لك!

- غفر الله لك!

وجالت الدموع فى عينى عتيبة تأثرًا ورقة؛ فقال وأنفاسه تختلج:

- سامحنى فيما اعتديت يا صاحبى!

ثم صحبه مستسلمًا وقد ازدحمت فى رأسه صورُ الماضى القريب والبعيد . .

وكان الشيخ الرومى فى خيمة الأمير، وقد وقف إلى جانبه عربيان كهلان فى زى منكر.

وثابت نفس عتيبة، حين رأى غريمه؛ رومى وفى بذمته! قد أفلت رأس عتيبة إذن من سيف الجلاد؛ وأفلت رأس الرومى الشيخ؛ هذان العربيان قد وهبا له الحياة، ولعله كان يسومهما الخسف فى أسره، ولكنهما الآن بحيث لايملكان إلا أن يفتدياه من الموت، رضيا أو كرها...

وأقبل الرومى الشيخ على عتيبة يشكر له منته؛ فخجل الفتى؛ علام يشكره؟ لقد كفله مكرهًا ثم لم يسلم بعد من الندم على ما فعل..

وكان الشيخ يلحظه بعينين فيهما إشفاق وحب ورحمة، وقد وقف الأسيران العربيان بينهما يشهدان ويسمعان صامتين، وكان مسلمة بن عبد الملك فى مجلسه القريب منهم يرى ويسمع صامتًا كذلك، ثم نطق:

- أيها الشيخ، قد علمنا ما حمل هذا الفتى العربى على كفالتك؛ فإن العرب -ما علمت- أهل مروءة ونجدة؛ فما حملك أنت على الركون إليه دون من حوله من الجند؟

- رأيت فى وجهه مخايل نبل!

- ولم ترَ هذه المخايل فى غيره من العرب؟

- ورأيت عاطفة تدفعنى إليه، فكأنما سمعت صوتًا ينادينى إليه؟

- لأمرٍ ما..

- لأن فيه ملامح من وجهٍ ما زلت ألتمس مثله فى الناس فلا أدرى!

- وجه عربى؟

- وجه فتاةٍ رومية!

- فتاة!

- ابنتى...

- ما لنا ولابنتك يا شيخ؟

- استباها عربى فى أبيدوس منذ بضع وعشرين سنة، ومضى بها..

- من أبيدوس أنت يا شيخ؟

- بطريق أبيدوس.. البطريق قسطنطين!

- قسطنطين...

واعتدل الأمير فى مجلسه وشحب وجهه، ونالت صوته حبسة فلم ينطق..

وذهل الفتى ودار رأسه . . بعض هذا الذى يسمع قد سبق إلى وهمه منذ لحظات . أتكون أمه بنت هذا البطريق؟ ولكنها لم تعترف بأنها رومية . . ولم تنكر أيضًا . . للمفاجأة العجيبة! لقد وعد نوار أن يمهرها تاج بطريق رومى، وأن يخدمها ابنته، أكان يعنى أن يجعل رأس جده مهر عروس، وأن يجعل فى خدمتها أمه وخالته؟ . .

وثقل الموقف على كل من يرى . .

الأمير ضيِّق النفس، ولكنه لا يستطيع فى مجلسه حراكًا .

والشيخ يريد أن يمضى إلى خلوة يتحدث فيها إلى الفتى حديثًا ما .

والفتى مشوق إلى حديث الشيخ ولكن شفتيه قد انطبقتا وجف لعابه فلا يستطيع لسانه أن يلفظ حرفًا . .

والعربيان الأسيران قد نال منهما الجهد واشتغال الفكر واللهفة إلى علم جديد عن أهل وبلد لم يرياهما منذ سنين طويلة ولم يسمعا عن أنبائهما . .

وأذن الأمير للمجلس أن ينفض ليخلو إلى نفسه ساعة . .

وسيق العربيان إلى بعض مضارب الجند ليصيبا شيئًا من الراحة . .

وتبع عتيبة البطريق ذاهلاً لا يكاد يحس أن رجليه تمسان الأرض!

ورغب الشيخ إلى الفتى أن ينزل عليه ضيفًا فى أبيدوس يومًا أو أيامًا، اعترافًا بجميله؛ فأجاب الفتى دعوته..

وتنبه عتيبة بعد غفلة إلى أن القلادة والجوهرة ما تزالان فى يده، فرفعهما إلى عينيه كَرة أخرى يتملاهما؛ وكانا فى الطريق إلى أبيدوس، ويصر البطريق بالجوهرة والقلادة فى يد الفتى، فندَّت من بين شفتيه صيحة، وارتاع الفتى حين رأى الشيخ يُطبق عليه وأصابعه تتقبض فى لحمه وهو يقول فى مثل صوت المحتضر:

- ذاك والله أنت يا بنى، وتلك ابنتى!

وانكشف الغطاء كله لعينى الفتى... واستسلم للشيخ مسلوب الإرادة، قد محا هذا اللقاء من رأسه صفحات وأثبت صفحات...

وأوى به البطريق إلى دار أنيقة فى أبيدوس، ثم دعا أهله رجلاً رجلاً وامرأة امرأة ليتعرفوا إلى نسيبهم العربى، ومثلت بين يدى عتيبة امرأة كأنها سبيكة، فى مفرقها جوهرة وعلى صدرها قلادة، فوثب إليها يريد أن يضمها إليه ويسند رأسه إلى كتفها وهو يهتف ذاهلاً:

- أمي سبيكة!

قال الشيخ وربت كتفه:

- تلك خالتك يا بني، توأمة لأمك. وما كان اسم أمك سبيكة يوم ذهبت، ولكني أؤثر منذ اليوم أن يكون اسمها سبيكة.. ليت شعري كيف صار اسم أختها «روديا» في بيت سيدها؟»[1].

قال الفتى:

- ومن تكون روديا هذه يا أبي؟

- بنت أخرى، استباها الغزاة في غارة معاوية؟..

- وغاب عنك خبرُها من يومئذٍ؟

- وغاب عني خبرُها من يومئذٍ.

- ولا أثر يدل عليها؟

- جوهرة وقلادة كذلك!

وجاءت امرأة البطريق فضمت عتيبة إلى صدرها وهي تهتف:

- ابني! ابني!

(١) «روديا» في الإغريقية القديمة: كلمة معناها «ورد».

وعرف عتيبة كثيرين وكثيرات، كلهم من بنى الخال والخالة، لو وافق أحدًا منهم قبل اليوم فى المعركة لعلاه بسيفه راجيًا عند الله الأجر . .

وأخذ جده البطريق يطوف به فى حجرات الدار :

– هذه الدمى كانت تلعب بها أمك يا عتيبة . . وهذه السلة كانت تجمع فيها الزهر . . وهذه الشجرة التى غرستها بيديها ولم تذق من ثمرتها شيئًا . . وهذا الثوب آخر ما خلعت قبل أن يذهب بها أبوك!

وكانت الدموع تنحدر على خدى الشيخ فتجاوبها دموع الفتى . .

واحتمل عتيبة ما احتمل من آثار أمه، ومما أهدى إليه الشيخ من طرائف الروم، ثم ودع أسرته هذه الجديدة وعاد إلى معسكره، يتبعه عشرات من بنى الأخوال والخالات .

وكان الأمير يرقب مقدمه؛ فلم يكد يؤذن بحضوره حتى دعا إليه . .

– وأيقنت من صدق ذلك كله يا عتيبة؟

– ورأيت بعينى دلائل اليقين!

– وحدثك البطريق بخبره كله!

- وحدثنى بكل ما كان من قبل ومن بعد!

- وعرفت خؤولتك فردًا فردًا؟

- وعرفت خؤولتى جميعًا إلا فردًا.

- من؟

- خالتى روديا.

- روديا!..

- نعم، فتاة أخرى استباها العرب فى غزاة معاوية!

- وغاب عنه خبرها من يومئذٍ؟

- غاب عنه..!

- ولا أثر يدل عليها؟

- جوهرة وقلادة كهاتين!

- وماذا تنبئ عن خبرها جوهرة وقلادة؟

- مثل ما أنبأته جوهرة أمى وقلادتها!

- ولكن أمك ولدتك واستحفظتك جوهرتها وقلادتها!

- وتظن روديا لم تلد ولم تستحفظ أحدًا؟

- من يدرى؟

- واأسفا!

- علام تأسف يا عتيبة؟

- لقد رجوت -منذ عرفت أن يكون لى فى المسلمين خالة آوى إلى مبرتها بعض أيامى، وأن يكون لى من ولدها خؤولة أنتمى إليها!..

- إنك- ما علمت لذو وفاء يا عتيبة؛ فأنا لك فى كل ما أملت يا أخى!

- وأين أنا منك يا مولاى؟

- ابن أخ أكدت الحادثات نسبه؟

- لا زال معروفك يطوق عنقى يا مولاى!

وأوشكت الدموع أن تنبثق من عينى الأمير، فهب واقفًا ومال بوجهه ناحية، ونهض الفتى فاستأذن منصرفًا إلى خيمته وقد توزعته أشجانه!

وارتمى بثيابه على فراشه مكدود النفس، وحلق الوهم فى أجواء بعيدة.. ولكنه لم يلبث أن انتبه من سرحته على صوت حرسى يدعوه ثانية إلى لقاء الأمير، وكان أحد العربيين الطليقين فى مجلس الأمير، وقد أبدل ثيابًا بثياب وسوى شعره وأحفى شاربه فبدا فى منظر غير ما كان منذ قليل..

- مولای!

-أتعرف هذا العربی یا عتیبة؟

- أحد الرجلین اللذین كانا . .

- نعم ، فهلا عرفت اسمه؟

- وما یكون اسمه؟

- عتیبة . .

قال الرجل متمماً :

- عتیبة بن عبید الله الرقی!

- عمی؟ أبو نوار؟

- من نوار؟ إنما أنا أبو بشیر!

- نوار أخت بشیر .

- ابنتی؟

- ابنة عمی .

- فأنت . .

- عتیبة بن النعمان!

-وماذ فعل النعمان؟

- مات . .

وتحيرت دمعتان في عيني الرجل ، ولم يملك الأمير جأشه فأرسل دمعة كذلك ، وقال الفتى وجسده يرتعد كله من الانفعال :

- وكنت في أسر البطريق يا عم كل هذه السنين؟

- نعم!

- وكانت ابنة البطريق في أسر النعمان!

- وي!

- نعم ، ولم يكن النعمان يدري ولم يكن البطريق . . !

- وماذا لو علما . . ؟

- لو علما لم تبقَ سبيكة في دار النعمان حتى تلد له عتيبة ، ولم يبقَ عمي في أسر البطريق!

- فأنت ابنها إذن؟

- نعم!

- وجدك البطريق؟

- أبو أمي؟

- ربحت صفقة البطريق .

□□□

[١٩]

وفاء النذر!

وعاد عتيبة إلى الرَّقة مثقلاً بالغنائم، لم يكن معه رأس بطريق لمهر نوار، ولكن معه أباها . .

ونشر على عينى أمه ما عاد به من طرائف الرحلة :

- هذه الدمية . . وهذه السلة . . وهذا الثوب . .

- من أين لك هذا يا عتيبة؟

- من أبيدوس؟

- وما فعل أولئك القوم؟

- ضيفوا ولدك فأكرموه وبروه .

- وعرفوا الله!

- وعرفهم ولدها!

- وما فعل الله بأبى؟

– ما زال يحمل السيف، ويلزم الثغر، ويتعرض للشهادة!

– وأين لقيته؟

– بين السيف والنطع!

– أسيراً.. يقدم للقتل؟

– ولكننى فككت سراحه وحقنت دمه!

– جوزيت من ولد بر!

– ذاك جزاء معروفك وبرك!

– ومن هذا الذى صحبك إلى الدار؟ كأننى أعرفه!

– قد حدست ذلك.. إنه عمى عتبة!

– عمك عتبة؟ وأين لقيته؟

– فى أبيدوس!

– قد ذكرته.. كان أسيراً فى دار قسطنطين!

– وكنت تعرفين أنه هنالك؟

– لم أكن أعرف أنه عمك!

– ولم يكن أبوكِ يعرف أنك امرأة أخيه!

– ثم عرف؟

- نعم . . بعد أن افترقا!

- وعرف أنه أبو فتاتكِ؟

- لم أنبئه بعد . .

- وتأمل أن تنبئه؟

- نعم، إذا خرجنا كرة أخرى لحرب الروم!

- وتطيب نفسك بحربهم وقد عرفت أن فيهم خؤولتك؟

- قد كنت أعرف ذلك منذ بعيد!

- وكتمت عني؟

- براً بك وإعظامًا لأمومتك؟

***

وكان الاحتفال بزواج عتيبة ونوار حاشدًا، قد ركب له مسلمة من دمشق إلى الرقة فى موكب من مواكبه، فأفاض من بره ولطائفه على العروسين الشابين وأهليهما ما كان حديث المدينة، ولقى سبيكة فتحدث إليها طويلاً، لم تحتجب منه إلا بنقاب شفيف تجول من ورائه عيناها . .

ثم أزمع السفر، فودعها وودع أهل الدار جميعًا وهو يقول لعتيبة:

- إن بيننا نسبًا وصهرًا، فاذكر عمك مسلمة كلما ضاق بك أمر . .

ثم ركب وركبت حاشيته، وودعته المدينة كلها إلى حدود البادية؛ وارتسمت فى ذهنه يومئذ صورة لم تفارقه قط فى سفر ولا حضر، هى صورة سبيكة، أو لعلها صورة أمه ورد، فلم يكن بين الصورتين كبير فرق، ولكن شفتيه لم تلفظا السر الذى ضم عليه أضلاعه حتى مات .

●●●

خاتمة

- مسجد الشيخ الصالح تحت أسوار القسطنطينية . .

- عين مسلمة . .

- خليج أبى أيوب . .

- ممر العرب . .

ذلك كل ما بقى ثمة من آثار الغزوة التى كانت سنة ٩٨ للهجرة!

ومضى مئتان من السنين، ثم مئتان، ثم ثلاثمائة، وكان محمد بن مراد، محمد الفاتح ابن عثمان، سنة ٨٥٧هـ، فافتتح القسطنطينية وجعلها للمسلمين دارًا، ولم تزل للمسلمين دارًا من يومئذٍ!

●●●

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ترجمة محمد سعيد العريان	٣
بنت قسطنطين	٢١
حديث القاص	٢٣
عهد ونذر	٣١
ابنة البطريق	٣٦
وَيْكَ مسلمة	٤١
أمهات الملوك	٤٨
وليُّ العهد	٦٠
راهب البلقاء	٦٩
بارقة أمل	٨١
نداء الدم	٩٢
قبر على الطريق	١٠٨
لبيك أبا أيوب	١٢١
وفاء بذمة	١٣٥
نفير الحرب	١٤٥

على شاطئ البرزخ	١٥٧
تميمة رومية	١٦٣
عرش يهتز	١٦٨
دسيسة العرق	١٧٩
على حافة الموت	١٨٤
وفاء النذر	٢٠١
خاتمة	٢٠٥
الفهرس	٢٠٧

●●●